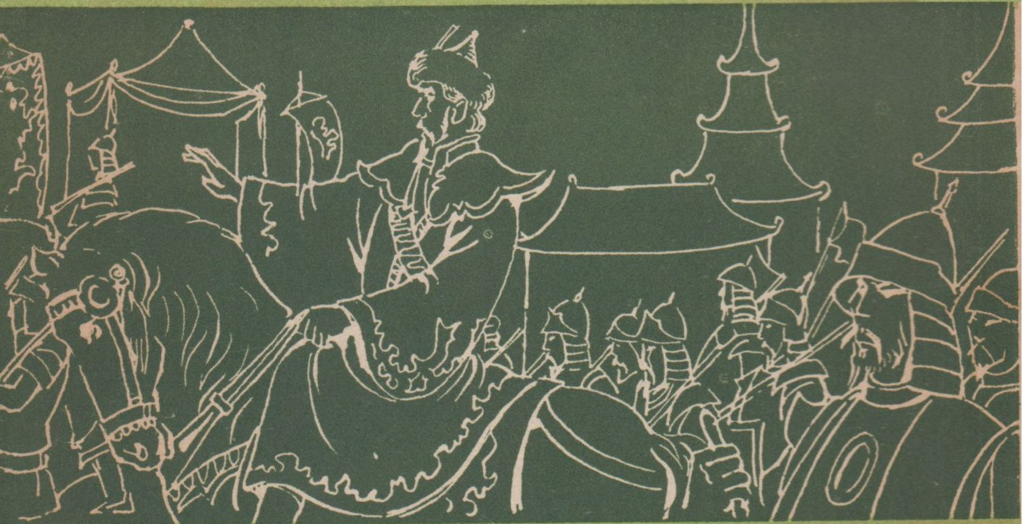
قصص الرحالة والمكتشفين

٩



# ماركو پولو

دار المعارف بمصر

# مارکوپولو

قصص الرحالة والمكتشفين

٩

# ماركو پولو

بقلم

إبراهيم أسعد

الطبعة الثالثة

# عودة المسافرين

من هؤلاء الغرباء الثلاثة ذوو الثياب الرثة الذين يقفون خارج منزل آل پولو فى البندقية عام ١٢٩٥؟ إنهم يطرقون باب المنزل يريدون الدخول. اثنان منهم متوسطا السن والثالث لا يزال شاباً. لقد ظهرت على وجوههم مظاهر التعب، وحملوا معهم صرراً ملفوفة بأقمشة شرقية.

ظن الناس أن آل پولو الثلاثة ماڤيو ونيقولا وابنه ماركو قد ماتوا منذ زمن بعيد، ولذلك تردد أقرباؤهم داخل المنزل فى استقبالهم. ولما فتح الباب أخيراً دخل هؤلاء الغرباء وقد حملوا أمتعتهم، وهم يتكلمون الإيطالية ولكن بشىء من الصعوبة.

تعرف هؤلاء الغرباء إلى أقربائهم فعرفوهم، ولم تلبث أخبارهم أن انتشرت فى المدينة فعمت الدهشة جميع الناس. وفى الحفلة التى أقيمت تكريماً لهم كان الرحالة الثلاثة يرتدون ثيابهم الحريرية ثم لم يلبثوا أن أحضروا ملابس السفر، وكانت رثة مهلهلة، فقطعوها بمشارطهم، فتدفقت اللآلئ والأحجار الكريمة وقطع الألماس من أمكنة كانت مخبأة فيها.

لقد اجتمع سكان البندقية بآل پولو، واستمعوا إلى قصصهم العجيبة عن بلاد الشرق.

كان ماركو پولو قد سافر مع أبيه وعمه فى رحلة طويلة إلى عاصمة

الإمبراطور قبلاخان فى الصين ورجع معهما . وهذه هى الرحلة الثالثة لأبيه وعمه.

وكان قبلاخان قد وثق بماركو پولو ، وعينه ضابطاً فى حرسه ، فقام برحلات رسمية عبر إمبراطورية التتار حتى أقاليمها الشمالية المتجمدة. وحتى الجزائر الجنوبية الحارة . إن ماركو پولو سافر إلى أماكن لم تطأها قدم أوربى قبله ، فدون كل ما رآه وشاهده فى مذكرات أحضرها معه إلى أوربا.

كان أهل أوربا لا يعرفون شيئاً عن الشرق الأقصى ، لقد كانوا حقـًا يستعملون الحرير الذى يستورد من تلك البلاد ويستخدمون اللآلئ والأحجار الكريمة والفلفل وأنواع البهار الأخرى ، ولكنهم ما كانوا يعرفون شيئاً عن تلك البلاد التى تزودهم بتلك السلع .

أوضح ماركو فى كتابه « رحلات ماركو پولو » . مدى ما وصل إليه سكان تلك البلاد البعيدة من مدنية أعظم من مدنية الغرب ، وذكر أن جيوشهم وسفنهم أكثر قوة وضخامة ، وأن حكامهم كانوا ذوى مطامع ، فملكوا معظم بلاد العالم المعروف فى ذلك الوقت . ووصف كذلك القبائل المتوحشة والعادات الغريبة والثروات الضخمة. ووصف كذلك الفقر الذى كان يضطر الأمهات إلى قتل أطفالهن . . . وتكلم عن سكان المدن العظيمة وعن مدى قوة الإمبراطور قبلاخان .

وعلى الرغم من أن الناس لم يصدقوا ماركو پولو وقتئذ إلا أن الزمن بعد ذلك أثبت أن كل ما قاله ماركو صحيح ، فأصبح اسمه بعد سبعة قرون معروفاً فى جميع أنحاء العالم كأعظم رحالة ظهر فى القرون الوسطى .



# البندقية عروس الأدرياتيك

هى مدينة القصور الشامخة والكنائس الفخمة والثروات الكبيرة . تقع البندقية على عدة جزر فى البحر الأدرياتيك تقوم فيها القوارب مقام السيارات والعربات فى المدن الأخرى . ليس بها شوارع منسقة ولكن قنوات تسير فيها القوارب البخارية أو تلك القوارب الجميلة الطويلة التى يطلقون عليها « الجندولا » .

كانت البندقية مدينة قوية فى العصور الوسطى دافعت عن كيانها ضد أعداء أكثر منها عدداً وعدة ، وكان لها أسطول حربى ضخم يدافع

عنها ، ولما كان البحر هو العامل الأساسى فى استقلالها كان البحر أيضاً هو العامل الأساسى فى ثروتها واتساع تجارتها . لقد كانت البندقية فى عهد الإمبراطورية الرومانية عدة قرى متناثرة يسكنها جماعة من الصيادين يعيشون على الصيد وعلى بناء السفن التى كانوا ينقلون عليها التجارة إلى الجنوب والشرق؛ ثم اتسعت هذه القرى ونشأت منها مدينة كبيرة لها قوانينها الخاصة وقوادها وحكومتها وجيشها المنظم .فاكتسبت ثروتها عن طريق التجارة، وكان أكثر رجالها ثروة هم التجار ، وكان كل حاكم من حكامها يلقب « بالدوج » وقد احتلت البندقية عدة جزر فى البحر الأدرياتيكى وفى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت قبرص ضمن ممتلكاتها فى يوم من الأيام .

وكان تجار البندقية يستقبلون معظم البضائع التى تصل إلى إيطاليا من الشرق ، ثم كانت سفنهم تحمل تلك البضائع من إيطاليا إلى القسطنطينية وإلى موانئ البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط .

وكان حكام البندقية يحتفلون كل عام احتفالاً عظيما بمدينتهم، فيخرجون فى سفن مزينة إلى عرض البحر، ثم يلقون خاتماً فى الماء دليلا على أن مدينتهم المحبوبة قد زفت إلى الأدرياتيك .

ثم أخذت ثروة المدينة فى النقصان عندما وجدت التجارة طرقاً جديدة عبر المحيط الأطلسى إلى أمريكا وحول الجزء الجنوبى من أفريقيا إلى موانئ الهند .

لقد حاول كثير من الدول الاستيلاء على البندقية، ولكن لم يكن من السهل اقتحام مدينة يدافع عنها البحر ولها أسطول حربي ضخم. فبقيت منيعة عزيزة الجانب حتى سقطت في يد نابليون . وفي المدينة اليوم من المباني الجميلة والمصانع والمتاحف ما يبين للزائر مدى ما كانت عليه عروس الأدرياتيك في العصور الوسطى من عظمة وثروة .

## عائلة پولو

كان «نيقولا پولو» من عائلة نبيلة في البندقية اكتسبت ثروتها من التجارة ، وكان كثيراً ما يسافر مع أخيه « ماڤيو » في رحلات تجارية إلى القسطنطينية في سفن تملكها عائلته، وكان يسعدها زيارة الأماكن البعيدة والتحدُث إلى الناس الغرباء وسماع أخبار الدول التي لم تطأها قدم أوربي، كما كانا لا يهابان الصعاب والمشقات .

وفي سنة ١٢٥٤ ولد لنيقولا پولو ولد أسماه ماركو، وكانت ولادته في منزل يقع كغيره من منازل البندقية على إحدى قنوات المدينة ؛ ولا يزال هذا المنزل في مكانه يؤمه الزائرون من جميع الأنحاء . وفي السادسة من عمره رحل أبوه وعمه إلى القسطنطينية . ثم ماتت أمه بعد رحيل أبيه بوقت غير

طويل، وقضى فترة طفولته فى منزل أحد أعمامه، وبقيت أخبار أبيه وعمه تصل إليه مدة سنتين متواليتين ، ثم انقطعت عنه بعد ذلك سبع سنين لم يسمع فيها عنهما شيئاً ، ففقد الأمل فى رجوع أبيه وأخذ ينساه ، وأصبح يعتقد أنه لن يعود .



لا نعرف كثيراً عن طفولة ماركو، ولكن لا بد أنه سار على النهج الذى كان يسير عليه أبناء الأغنياء فى عهده: يتعلم اللاتينية بجانب المواد الأخرى، ويتدرب على مختلف الألعاب ومنها المبارزة ، ولا شك أنه كان يلاحظ السفن وهى تصل إلى البندقية محملة ببضائع الشرق من حرير وسجاد وذهب ولآلئ وألماس وعاج وأخشاب نفيسة وفلفل وبهار ؛ ولا بد أنه كان يعرف السباحة وقيادة السفن . ويعرف أنه سوف يركب سفن عائلته للتجارة ماخراً بها عباب الماء إلى بلاد الشمس المشرقة .

# التتار

فى سهول آسيا الواسعة بين سور الصين العظيم ونهر الفولجا فى روسيا كانت تعيش قبائل متعددة من المغول أو التتار على رعى الأغنام . وقد لعب هؤلاء القوم دوراً كبيراً فى التاريخ ، وكان اسم التتار يملأ قلوب الشعوب رعباً ، وفى الظروف العادية كانوا يعيشون على رعى الأغنام والماشية ، وكانوا فى بعض الأحيان يتحدون ليحاربوا دولا أكثر منهم مدنية فى الشرق أو الغرب ، فلا يستطيع جيش من الجيوش أن يصدهم .

وليس معنى هذا أن الجيوش التتارية كانت كقطعان الذئاب لا ضابط لها ولا رابط . بل كانت جيوشاً منظمة تنظيما يفوق غيره فى جيوش الأمم المتحضرة. ترسم خططها بدقة تامة وتعتمد اعتماداً كلياً على الطاعة والنظام والتقشف والشجاعة . لقد كانت كالآلة الضخمة الدقيقة المتينة الصنع التى يديرها مهندس كفء يفهم عمله تمام الفهم ولا تغمض عيناه عن مراقبتها وتزويدها بالوقود اللازم والخدمة الحسنة .

كانت غزوات التتار كالإعصار المدمر ، أو كأسراب الجراد التى تنزل على الحقول المورقة المثمرة فتلتهمها التهاماً . لقد اجتاحت جيوش التتار سهول آسيا وبلاد الصين وبلاد ما وراء النهر ، فأتت على الأخضر

واليابس، وتركت وراءها الجوع والموت والمدن الخاوية التى تعوى بين جنباتها صيحات الذئاب وتنعق على أطلالها البوم .

وكان التتار قوماً رحّلا لا يمكثون طويلا فى مكان واحد ، وكانت ثروتهم تتركز فى قطعان الغنم والماشية يعتمدون عليها فى غذائهم وكسائهم، وكانوا يحتقرون الشعوب المستقرة التى تعتمد على الزراعة وتسكن المدن. وإذا اقترب الشتاء رحلوا إلى المناطق الدافئة وراء الحشائش، فإذا أتى الربيع رحلوا إلى المناطق المرتفعة الرطبة حيث يكثر الطعام والماء وتقل الحشرات التى تؤذى أغنامهم وماشيتهم .

ويتعلم أبناؤهم فى صغرهم ركوب الخيل واستعمال القوس، فإذا شبوا أصبحوا فرساناً من الطراز الأول وصيادين مهرة ومحاربين أقوياء ، وكانوا يهتمون بالصيد والحرب . أما رعاية الماشية فكانوا يتركونها للنساء . ولما كان للتترى الحق فى أن يتزوج من أكثر من امرأة كانت خيامهم ملأى بالأطفال من جميع الأعمار ينشئونهم على ركوب الخيل منذ نعومة أظفارهم ليكونوا نواة صالحة لجيوشهم .

وخيمة التترى مكونة من عصى طويلة مربوط بعضها ببعض ومغطاة بقماش سميك تصنعه نساؤهم من صوف الأغنام، ويمكن نشرها وطيها بسرعة، كما يمكن حملها بسهولة لخفتها . وكانوا ينصبون خيامهم جاعلين مدخلها نحو الجنوب خوفاً من ريح الشمال الباردة . ويستطيع الجمل الواحد أن يحمل من الخيام خمساً أو ستاً لخفتها، وقد توضع على عربات تجرها

الثيران . وهذه العربات هى المنازل المتحركة للنساء والأطفال عند انتقال القبيلة من مكان إلى آخر . ويستعملون اللبن غذاء كما يصنعون منـــه الجبن أو يجففونه ليأخذه الرجال عندما يخرجون للصيد أو للحرب .

وهم لا يأكلون الخبز لأنهم لا يزرعون الغلال ولا يحرثون الأرض ، ولكنهم يأكلون لحم الأغنام والماشية والخيل والكلاب والحيوانات المتوحشة التى يقومون بصيدها .

وكان التتار منذ نعومة أظفارهم يتعودون منظر الدماء ، إذ كانت الحيوانات تذبح أمامهم وتقطع للطعام . وكانوا إذا خرجوا للصيد لم يذهبوا أفراداً أو فى جماعات صغيرة . ولكن يخرجون إليه فى جماعات ضخمة تشبه الجيوش .

وعنـــد الصيد يتقدم الفرسان فى دائرة ضخمة ؛ وقد يتسلقون تلالا أو يعبرون أنهاراً أو يخترقون أودية ليكملوا هذه الدائرة ، فإذا أحيط هذا المكان المتسع جدًّا بدائرة الفرسان أخذت هذه الدائرة تضيق شيئاً فشيئاً وهى تدفع نحو مركزها كل ما يصادفها من حيوان متوحش ، ثم تبدأ بعد ذلك عملية تقتيل الحيوان . وهم فى ذلك يعملون بنظام دقيق كما لو كانوا جيشاً منظماً فى ميدان قتال .

وإذا اتحدت قبائل التتار للحرب لم يستطع الجنود الذين يعيشون عيشة سهلة فى المدن الصمود أمامهم . لقد سقطت فى أيديهم إمبراطورية



الصين العظيمة ، وكذلك بلاد فارس والعراق وبعض أجزاء من أوربا . وكان فى استطاعتهم احتلال جميع دول العالم المعروف فى ذلك الوقت لو كانوا تحت قيادة موحدة ، ولكن وقف التنافس والتطاحن بين زعماء التتار بعد جانكيزخان حال دون ذلك . وكانوا إذا انتصروا على دولة ما وبدءوا ينعمون بالمدنية والحياة المستقرة فقدوا روحهم الحربى الذى كان سبباً فى انتصارهم ، ولذلك نرى أن إمبراطوريات التتار لم تعمر طويلا ، حتى إن سكان الصين الذين لا يميلون بطبيعتهم إلى الحروب استطاعوا أن يطردوهم من ديارهم دون عناء .

# الرحلة الأولى

أبحر الأخوان نيقولا وماڤيو پولو من البندقية فى سفينتهما التجارية، وبعد رحلة بحرية موفقة وصلا إلى القسطنطينية حيث قاما بأعمالهما التجارية، ثم أبحرا بعد ذلك إلى موانئ البحر الأسود ليتجرا مع التتار الذين كانوا يقطنون تلك المناطق . ولما وصلا إلى ميناء « صوداق » الذى ينزل فيه التجار الراغبون فى تبادل التجارة مع سكان تلك البلاد، سمع الأخوان عن ملك تترى عظيم يسكن فى الشرق البعيد يرحب بالغرباء والتجار؛ فصمما على التوجه إليه؛ فاستأجرا الخيول والخدم وسارا عبر السهول الواسعة لعدة أسابيع بين قطعان من الماشية وخيام يسكنها التتار حتى وصلا إلى بلاط ملك التتار العظيم « بركة » ، فدعاهما إلى زيارته مرحباً بهما ترحيباً كبيراً .

وقد سر الملك بالمجوهرات التى أهدياها إليه سروراً عظيما وكافأهما مكافأة جزيلة وصرح لهما بالاتجار فى بلاده وقدم لهما كثيراً من الهدايا الثمينة، وقد مكثا فى تلك البلاد يتجران مع التتار ويدرسان وسائل معايشهم ويتعلمان لغتهم، وبعد سنة بدأا يجهزان رحلة العودة إلى الوطن، ولكن ما لبثت الحرب أن نشبت بين الملك « بركة » وأحد زعماء التتار فتحولت السهول الآمنة التى عبراها فى طريقهما إلى الشرق ميادين قتال . وقد هزم « بركة » فى هذه الحرب واستولى أعداؤه على بلاده فكان من

الخطر عليهما الرجوع إلى شاطئ البحر الأسود، ونصحهما بعض الناس بالاستمرار فى الاتجاه شرقاً عسى أن يستطيعا الرجوع إلى وطنهما عن طريق آخر، فاستأجرا الخيول اللازمة والأدلاء واتجها شرقاً عبر أودية متسعة يسكنها التتار مخترقين الأنهار والجبال حتى وصلا بعد رحلة شاقة استغرقت عدة أسابيع إلى مدينة «بخارى» العظيمة، وكان يحكمها فى ذلك الوقت الملك «باروك» أحد ملوك التتار الأقوياء، فرحب بهما هذا الملك وسمح لهما بالاتجار فى بلاده فمكثا ثلاث سنوات استطاعا أثنائها فى التكلم بلغة التتار والوقوف على عاداتهم حتى إنهما لبسا ثيابهم وأصبحا يسيران بينهم بحرية كما لو كانا تتاراً.

استسلمت مدينة بخارى للجيوش التتارية بقيادة جانكيزخان سنة ١٢١٩ بعد هروب السلطان محمد شاه خوارزم. ولما رأى أهل المدينة أن من العبث مقاومة هذه الجحافل الضخمة من جنود التتار أرسلوا بعض الأئمة والعلماء ووجهاء المدينة حاملين مفاتيح مدينتهم إلى جانكيزخان، فقابلوه فى خيمته الحريرية الصفراء المطلة على سهول بخارى وأظهروا له استعدادهم لتسليم مدينتهم دون مقاومة إذا وعدهم العاهل التتارى بأن يكون رحيماً بهم.

رفض جانكيزخان ما طلبه العلماء والفقهاء، فقررت حامية المدينة — ولم يكن عدد جنودها يتجاوز أربعمائة جندى — أن تدافع عن المدينة حتى الرمق الأخير، فاعتصم الجنود بقلعة صغيرة فى أطراف المدينة. أما المدينة نفسها فقد فتحت أبوابها لاستقبال الغزاة.

قاومت حامية القلعة التتار حتى قتل معظم جنودها ، وقد اضطر التتار إلى استعمال المجانيق لقذف القلعة بالمواد المشتعلة .

وعندما دخل جانكيزخان المدينة قال لجنوده : إن كل ما فيها من غذاء هو لهم يتصرفون فيه كما يشاءون ؛ ثم أمر أهل المدينة بإحضار الطعام والشراب الكافيين لجنوده .

وقبل أن يغادر جانكيزخان بخارى أمر بأن توزع عذارى المدينة على هؤلاء الجنود بالتساوى .

وكان أعظم أباطرة التتار فى ذلك الوقت « قبلاخان » إمبراطور الصين الذى يعده زعماء التتار الآخرون زعيما لهم يرسلون إليه الرسل والسفراء على الرغم من بُعد المسافة بينهم وبينه .

وقد حدث أن كان أحد هؤلاء السفراء إلى قبلاخان يستريح فى بخارى ليستأنف رحلته إلى الصين ؛ وسمع عن الأخوين الأوربيين فرغب فى مقابلتهما لأنه لم ير أحداً من أوربا قبل ذلك ؛ فسرّ بما سمعه عن بلاد الغرب وحثهما على الذهاب معه فى رحلته إلى الصين .

لقد كلمهما هذا السفير كثيراً عن بلاد الصين وعن قبلاخان وعن مدى ما وصل إليه أهل الصين من مدنية عظيمة ، كما أخبرهما عن مدى سرور الملك قبلاخان بلقائهما لأنه يميل إلى لقاء الغرباء الذين يأتون من بلاد بعيدة ليتعرف على عاداتهم ودياناتهم وأحوال ملوكهم وحكوماتهم . فوافق الأخوان على الذهاب إلى الصين بصحبة السفير ، إذ لم يكن

فى استطاعتهما الرجوع إلى أوربا . وجهزا أنفسهما بالخيول والجمال وسارا عبر بلاد جبالها مغطاة بالثلج . وعبرا أنهاراً لم يرها أوربى من قبل. واستغرقت الرحلة ما يقرب من العام حتى أشرفا على عاصمة الإمبراطور «قبلاخان» . وكانت سلطة هذا الحاكم واضحة فى أثناء رحلتهما فلم يتعرض لهما قاطع طريق ولم يفقدا شيئاً من مقتنياتهما .

وعندما وصلا إلى المدينة دعاهما الإمبراطور إلى زيارته فتوجه إليهما بعض ضباطه لإرشادهما إلى تقاليد البلاط وإلى النظم المتبعة فى حضرة الإمبراطور العظيم .

وقد استقبلهما الإمبراطور بكل عطف وتحدث معهما عن دول الغرب لأنهما كانا أول أوربيين زارا بلاطه . وقد كرمهما وقدم لهما الهدايا الثمينة . وعلى الرغم من أنه كان أقوى حكام العالم فى ذلك الوقت فإنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة . وكان يعلم أن النقص الأساسى فى شعبه هو الجهل ، فكان يستقبل فى بلاطه العلماء ورجال الديانات من جميع الأجناس ، وكان يشجعهم على نشر دينهم بين الناس ، وكان يعتقد أنه إذا علم شيئاً عن عادات الدول الغربية وحكامها استطاع أن يحكم إمبراطوريته الشاسعة بشكل أفضل .

لقد سألهما عن إمبراطور روما وعن أهم ملوك الغرب واستفسر منهما عن الوسائل التى يعاقب بها المجرمون وعن القوانين التى توضع لمصلحة الشعوب وكيف تحارب جيوش الغرب وما أسلحتها ، وسألهما عن مدى قوة



البابا زعيم المسيحية وما هي عقائد المسيحيين .

أجابه الأخوان بقدر ما يستطيعان، ورضي بإجاباتهما ، وفكر في إرسالهما مع أحد ضباطه كسفراء له لدى البابا . وقال إنه سيعطيهما رسائل إليه يطلب منه فيها أن يرسل مائة راهب ليعلموا سكان الصين الديانة المسيحية وليبينوا للناس أن آلهتهم وتماثيلهم التي يعبدونها في خيامهم هي آلهة كاذبة ، كما يعلمونهم بعض حرف الغرب المفيدة .

فرأى الأخوان فى هذه البعثة فرصة نادرة للرجوع إلى أرض الوطن، فحنوا رأسيهما إلى الأرض كما كانت العادة فى ذلك الوقت، وأخبرا الإمبراطور أنهما على استعداد للقيام بهذه البعثة .

فسلمهما الإمبراطور جوازاً ذهبياً يمكنهما من المرور دون أى خطر عبر أراضى التتار، وأمدهما بالخدم والجنود والحيوانات اللازمة، وبدأت بذلك رحلتهما الطويلة نحو الغرب .

لم يمض وقت طويل حتى مرض الضابط المنتدب للسفر معهما ولم يستطع الاستمرار فى الرحلة . فقد كانت رحلة شاقة وبعيدة . واعتقد الأخوان أنهما لن يصلا بتاتاً . ولقد قاسيا كثيراً من البرد القارس ومن فيضان الأنهار . وكان عليهما أن يخترقا صحراوات شاسعة محرقة نفق فيها كثير من حيواناتهم . وعلى الرغم من أن الجواز الذهبى مهد لهما السبيل وجلب لهما الحماية فقد مضت ثلاث سنوات إلى أن وصلا أحد موانئ أرمينيا على البحر الأسود استقلا منه مركباً أوصلتهما سنة ١٢٦٩ إلى عكا على ساحل سوريا، وهناك علما أن البابا قد توفى وكان عليهما الانتظار بعض الوقت حتى ينتخب البابا الجديد فيسلما له خطابات الإمبراطور « قبلاخان » فقررا التوجه إلى البندقية لزيارة عائلتهما حتى يتم هذا الانتخاب .

# رجوع الأخوين

وفى ذات يوم من عام ١٢٦٩ حدث نوع من الاضطراب فى منزل آل پولو بالبندقية إذ وقف رجلان غريبان أمام هذا المنزل وكانا يلبسان ملابس رثة ممزقة ذات زى لم يعتده أهل البندقية وقد ظهر عليهما آثار التعب والجهد وكانا يتكلمان الإيطالية ولكن بشىء من الصعوبة .

قرعا الباب ففتحه لهما شاب ما لبث أن سأله أكبر الرجلين عن اسمه فأخبره أنه ماركو پولو ابن نيقولا پولو الذى سافر منذ عشر سنوات ولما يعد، فأخبره الرجل أنه أبوه وأن الشخص الآخر هو عمه ماڤيو ثم طلب إليه أن يدعو أمه، ولكن الشاب أخبره أن أمه ماتت منذ زمن طويل. ثم حضر الأخ الثانى لنيقولا فتعرف على أخويه وعمت البهجة الجميع . وما لبث أن انتشر فى جميع أنحاء البندقية خبر رجوع الأخوين ومعهما أحمال من الذهب والأحجار الكريمة والسجاجيد والحرير وغير ذلك من التحف الجميلة التى لم يرها أوربى من قبل ، كما انتشرت الأخبار أن الأخوين لن يمكثا طويلا فى البندقية بل سيرجعان إلى بلاد الشرق ... لقد كانت عائلة پولو عائلة مدهشة حقًّا .

سر ماركو پولو بلقاء والده كما سر نيقولا بلقاء ابنه . وأنصت

ماركو بولو بشغف إلى أبيه وهو يقص عليه أخبار رحلاته إلى الشرق وعن العجائب التى رآها فى تلك البلاد البعيدة . وقد طلب ماركو من أبيه أن يصحبه معه فى رحلته المقبلة .

أما أعيان البندقة فلم يصدقوا أخبار آل بولو ولم يكونوا يعتقدون أن هناك دولة عظيمة تسمى الصين أكثر منهم تقدماً ومدنية .

لقد وصف آل بولو الأوراق المالية المستعملة فى الصين كما تحدثا عن الطباعة وكيف أن الكتب فى الصين لم تكن تكتب باليد كما كانت الحال فى البندقية ، إنما كانت تطبع فى مطابع خاصة . ورأى أعيان البندقية الجواز الذهبي الذى منحهما إياه « قبلاخان » فدهشوا كيف تسنى للأخوين أن يسافرا بذلك الجواز عبر قارة آسيا الشاسعة بجبالها وأوديتها وأنهارها وصحراواتها .

لقد انتظر الأخوان عامين فى أوربا حتى يتم اختيار البابا الجديد، ولكنهما رأيا أن « قبلاخان » قد يعتقد أنهما لن يعودا فصمما على الرجوع إلى الصين وتسليم الخطابات إليه معتذرين له بأن البابا الجديد لم يكن قد انتخب بعد . ثم توجها إلى بيت المقدس لاستحضار الزيت المقدس الذى طلبه « قبلاخان » ثم استعدا لرحلتهما عبر القارة الشاسعة، وقد صحبا معهما « ماركو بولو» .

وفى أرمينيا وصلت إليهما رسالة تلح عليهما بالرجوع بسبب انتخاب البابا الجديد ، فرجعا وسلما إليه رسائل إمبرطور الصين ، فأعطاهما بعض

الرسائل إلى « قبلاخان » ولكنهما لم يجدا من المعلمين والقسيسين سوى اثنين وافقا على السفر معهما، وكان هذا فى أواخر عام ١٢٧١ وأوائل سنة ١٢٧٢ .

## الرحلة الطويلة

بدأت القافلة رحلتها من ميناء عكة ووصلت إلى سواحل أرمينيا ، وكانت القافلة مكونة من الأخوين ومن ماركو پولو والقسيسين وبعض الخدم والأدلاء ، ولكن لم يكادوا يبدءون رحلتهم حتى علموا أن بيبرس سلطان مصر قد احتل أرمينيا مخرباً مدنها وقراها .

لقد ملأ هذا الخبر قلوبهم رعباً وصمم القسيسان على الرجوع خوفاً على حياتهما ، أما آل پولو فقد ساروا نحو الشمال الشرقى حيث كانت تسكن قبائل من التتار مهدوا السبيل للرحالة عندما رأوا جوازهم الذهبى .

وفى طريقهم رأى ماركو ينبوعاً من الماء الساخن يتدفق من الأرض وفى مكان آخر رأى منجم فضة كما مر بجبل الفلك الذى قيل إن فلك نوح قد رسا عليه بعد الطوفان . وإلى الشمال لاحظ ماركو آباراً تحتوى على الزيت بدل الماء، وكان الناس يستعملون هذا الزيت لعلاج جروحهم وإنارة منازلهم .

تحمل ماركو مصاعب الرحلة إذ كان شاباً قوياً ، وقد استطاع تعلم لغة التتار من أحد الأدلاء فى فترة وجيزة .

وبعد أرمينيا وصل الرحالة إلى مدينة الموصل على نهر دجلة وكان سكان هذه المدينة يجيدون صناعة نوع دقيق من النسيج أطلق عليه « الموسلين » نسبة إلى الموصل ، وكان هذا القماش منتشراً فى أوربا فى ذلك الوقت . ثم ساروا مع نهر دجلة حتى وصلوا مدينة بغداد ، وكان ببغداد كثير من المساجد العامرة والمدارس التى كان يتردد عليها الطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامى .

ثم تركوا بغداد متجهين شرقاً فعبروا الصحراء والجبال التى تفصل العراق من بلاد فارس .

وفى فارس اشترى الرحالة بعض الحمير ، وكانت الحمير أكثر قيمة من الخيل لأنها تستطيع حمل الأثقال واحتمال مشاق السفر .

كانت هذه البلاد قبل احتلال التتار مرتعاً للصوص وقطاع الطرق ، ولكنها أصبحت آمنة لأن التتار كانوا يعاقبون اللصوص الذين يهاجمون التجار عقاباً صارماً .

لقد رأى ماركو پولو القطن لأول مرة مزروعاً فى حقول فارس .

وكانت مدينة يزد على حدود فارس ملتقى التجار من جميع أنحاء آسيا ، وقد اشتهرت بصناعة نوع من الأقمشة الحريرية الموشاة بالذهب .

استراح الرحالة فى مدينة يزد استعداداً لعبور صحراء « كرمان »

الواقعة إلى الشرق من فارس . ثم عبروا هذه الصحراء الشاسعة فى ثمانية أيام كانوا ينصبون خيامهم ليلا تحت ضوء النجوم ويوقدون نارهم ويطهون طعامهم . فإذا ناموا بقى أحدهم مستيقظاً لإنذارهم إذا ما حاول قطاع الطرق الهجوم عليهم .

وقد اشتهرت مدينة « كرمان » بصناعة الأسلحة المختلفة الأنواع وسروج الخيل ، وكان النساء يعملن فى صناعة الأقمشة يزينّها بأشكال الطيور والحيوانات ، وكان الأغنياء يستعملون هذه الأقمشة فى عمل الستائر الفاخرة وأغطية الأسرّة .

وبعد كرمان عبروا صحراء أخرى آبارها ملحة ومياهها سامة لم يشرب منها حيوان من حيواناتهم إلا نفق ، ثم وصلوا إلى مجرى ماء عذب استراحوا بجواره عدة أيام استعداداً لاستئناف رحلتهم .

بدأ ماركو يشعر بطول الرحلة وبأنهم لن يصلوا إلى حدود الصين . لقد أصبح يتكلم التتارية بسهولة وزادته مشاق الرحلة قوة واحتمالا .

إنه وصل إلى ما لم يصل إليه شاب إيطالى من قبل ولكنه عندما سأل أباه عن نهاية الرحلة أخبره أن أشق مراحل هذه الرحلة لم يأت بعد .

# سقف العالم

وعندما ترك الرحالة حدود فارس وأتوا إلى مدينة بلخ أعلن نيقولا پولو أنهم قطعوا بذلك نصف رحلتهم . لقد كانت مدينة بلخ مدينة عظيمة بقصورها وشوارعها وميادينها المتسعة ولكنها قاست كثيراً من هجوم التتار عليها فتهدمت معظم مبانيها .

ومن بلخ ساروا مصعدين نحو الشمال مخترقين جبالا مرتفعة تغطى بعضها الثلوج فقاسوا كثيراً من شدة البرد ، ولم تكن النار كافية لتدفئتهم فى تلك المناطق الباردة .

وبعد ذلك وصلوا إلى مملكة « بلشان » وكان ملكها صديقاً للتتار وكان ملوك بلشان يقولون إنهم من نسل الإسكندر الأكبر الذى تزوج ابنة ملك الفرس ، وقد اشتهرت هذه الدولة بمناجم الذهب والفضة ، وكان أهل بلشان محاربين مهرة يغطون أجسامهم بجلود الحيوانات .

وفى أثناء عبورهم لهذه الدولة مرض ماركو ولم يستطع السفر ، وقد قلق عليه أبوه وعمه واعتقدا أن مشاق الرحلة قد أثرت فى صحته وأنه قد يموت . وقد أخرهم مرضه عدة أشهر حتى نصحهم بعض الناس بأخذه إلى التلال المرتفعة حيث الهواء بارد ومنعش . وقد شفى ماركو فعلا واسترجع

صحته فاستأنفوا رحلتهم شرقاً .

لقد كانوا فى طريقهم إلى أكثر جبال العالم ارتفاعاً فى إقليم « پامير » وقد استمروا اثنى عشر يوماً يعبرون هذه الجبال القاحلة الباردة، وكان ماركو يحن أحياناً إلى شمس إيطاليا المشرقة، ولكنه لا يلبث أن يشعر بالفخر لأنه أول شاب إيطالى وطئت قدمه هذه المناطق . لقد كانوا حقًّا فوق سقف العالم أكثر بقاع الدنيا ارتفاعاً .

وبعد عدة أسابيع بدءوا يقتربون من مدينة « قشغر » وهى إحدى مدن ، الصين وكان يحكمها أحد أتباع الإمبراطور « قبلاخان » . وأحس الرحالة أنهم يقتربون من نهاية رحلتهم على الرغم من أنه كان أمامهم أن يعبروا صحراء « جوبى » أكثر صحراوات العالم وعورة .

لقد استعدوا استعداداً خاصًّا لعبور هذه الصحراء المقفرة فجهزوا أنفسهم بحيوانات جديدة قوية ، وزودوا قافلتهم بالطعام والماء . إن كثيراً من التجار والرحالة لقوا حتفهم فى هذه الصحراء المحرقة ؛ فكم من قافلة ضخمة لم يعرف مصيرها فى هذا القفر الموحش . كان الناس يعتقدون أن بهذه الصحراء أرواحاً شريرة تقود المسافرين إلى حتفهم . لقد كان صوت الريح وهى تهب عبر هذه الصحراء يملأ النفس رهبة ورعباً ، ويقال إن جماعات من الجن المسلحين كانوا يهاجمون المسافرين فى الصحراء فإذا حاول هؤلاء المسافرون الهرب ضلوا طريقهم وماتوا جوعاً وكانت عظام المسافرين الذين هلكوا فيها متناثرة على الرمال .



وعندما وصلوا إلى حافة هذه الصحراء استراحوا بعض الوقت واشتروا الطعام الضرورى وبدلوا حيواناتهم وعلقوا فى رقبة كل حيوان جرساً حتى إذا تاه فى أثناء الليل أمكنهم العثور عليه، ثم استأجروا دليلا ماهراً وبدءوا رحلتهم عبر الصحراء .

لقد أحس ماركو بالخوف من رؤية العظام المتناثرة هنا وهناك، وخشى أن يكون مصيره هو مصير أولئك الذين هلكوا من قبل فى هذه الصحراء المترامية الأطراف .

استمر سيرهم عبر الصحراء ثلاثين يوماً، وكانوا كل ليلة يربطون جمالهم وحميرهم حتى لا تتجول بعيداً، واستعملوا طعامهم وماءهم بعناية تامة فكان يوزعه ييقولا پولو بحساب دقيق .

واستطاعوا عبور الصحراء بسلام حتى وصلوا إلى مدينة « كامبيون » فبقوا فيها ما يقرب من العام منتظرين أن يصل إليهم إذن من الإمبراطور فى دخول عاصمة الصين .

## مدينة كامبيون

وفى الفترة التى قضاها ماركو پولو فى هذه المدينة استطاع أن يدرس حالة الناس .

لقد كان بها مسلمون ومسيحيون وبوذيون، وكان لكل طائفة من هؤلاء معابدها الخاصة ، وكانوا يعيشون جميعاً جنباً إلى جنب فى محبة وسلام .

يقول ماركو إن تماثيل الإله بوذا كانت مغطاة بقشرة من الذهب، وكان الكهنة البوذيون يحيون حياة نقية حتى يكونوا بذلك مثلا لأتباعهم، ولهم فى كل شهر عدة أيام لا يذبحون فيها طائراً أو حيواناً ولا يأكلون سمكاً .



ويستطيع الشخص العادى أن يتزوج بمن يشاء من النساء ولكن الزوجة الأولى كانت تعتبر أهم أولئك الزوجات جميعاً وإذا تشاجرت زوجة مع الزوجات الأخريات كان من حق زوجها طردها من منزله .

وكان سكان المناطق المجاورة يربون الجمال والماشية من جميع الأنواع ، ويعيشون على الزراعة يأكلون لحوم ماشيتهم ويشربون لبنها . وكانوا يصيدون الطيور بواسطة الصقور فيركبون خيولهم ومع كل منهم صقر غطى رأسه بقطعة من القماش . فإذا رأى الصياد طائراً يريد اقتناصه رفع القماش من على رأس الصقر وقذف بالصقر فى الهواء فاذا رأى الصقر الطير اندفع نحوه ثم ارتفع فوقه ثم انقض عليه فجأة وضربه بعنف حتى يصل به إلى الأرض فيسرع إليه الصياد ويأخذ الصقر ثم يضع الصيد فى حقيبته .

# نهاية الرحلة

وكلما اقترب الرحالة من الصين سمعوا الكثير عن الخان العظيم . لقد كان يسكن قصراً عظيما بناه من الأحجار الملونة فبدا كالمدينة فى ضخامته. سمع الخان بقدومهم وكانوا لايزالون على مسافة شاسعة من الصين. إذ كان باستطاعة الخان أن يتعرف على أخبار دولته المترامية الأطراف بواسطة نظام دقيق وضعه . فقد كانت هناك محطات قائمة على الطرق الأساسية للدولة، بها خيول يركبها عمال البريد لكى ينتقلوا بسرعة من مكان إلى مكان، حاملين مختلف الأخبار إلى سيدهم الإمبراطور « قبلاخان» لقد أخبروه أن آل پولو فى طريقهم إلى الصين فأرسل رسلا لاستقبالهم على مسيرة أربعين يوماً ، وأمرهم أن يهيئوا لهم جميع سبل الراحة فى كل مكان ينزلون فيه .

لقد دهش ماركو عندما رأى موظفى الخان العظيم فى ملابسهم الحريرية الصفراء وهم يستقبلون أباه وعمه استقبالا حافلا . ثم مالبثوا أن رأوا المبانى البيضاء بعاصمة قبلاخان وهى تتلألأ تحت أشعة الشمس فعرفوا أنهم فى نهاية رحلتهم التى استغرقت ثلاث سنوات ونصف سنة ، وكان ماركو فى ذلك الوقت قد جاوز العشرين من عمره .

وبعد أن استراحوا فى منزل خاص أعد لهم لبسوا أفخر مالديهم من ملابس وذهبوا ليقدموا أنفسهم إلى الإمبراطور الذى أمر بحضور أكبر موظفى الدولة وضباط الجيش لاستقبالهم تكريماً لهم . وعندما اقتربوا من كرسى العرش ألقوا بأنفسهم تحت قدميه فأمرهم بالقيام وصافحهم بشوق وعطف كبيرين .

لقد أراد قبلاخان أن يعرف من الأخوين پولو كل شىء عن رحلتهما وعن سبب تأخرهما وكيف نفذا أوامره . فحكى نيقولا كل مامر بهما من حوادث حتى إذا تعب من الحديث تقدم أخوه « ماڤيو »لتكملة هذا الحديث . لقد أخبراه برحلتهما الطويلة إلى أوربا وكيف أخفقا فى تسليم رسائله إلى البابا بسبب وفاته ثم انتظارهما عامين حتى يقدموا رسائله إلى البابا الجديد . ثم أخبراه بقصة القسيسين ثم قدما له رسائل البابا الجديد . وقد سر الخان سروراً عظيما لإحضارهما الزيت المقدس من بيت المقدس كما شكرهما على ما تجشماه من مشاق وأخطار .

ثم سأل عن ماركو، ولما علم أنه ابن نيقولا رحب به ترحيباً عظيما وعينه ضابطاً فى حاشيته، ثم أقام لهم حفلة ضخمة دعا إليها جميع النبلاء وقواد الجيش . لقد رحب بهم قبلاخان ووضعهم فى الصف الأول بين رجاله وأعوانه المقربين .

# فى خدمة الإمبراطور

أتقن ماركو پولو لغة التتار بسرعة، وأصبح يتكلمها بطلاقة . فكلفه الإمبراطور تأدية أعمال هامة، كما أرسله فى رحلات طويلة براً وبحراً، فكان ماركو يلبس ملابس التتار ويأكل طعامهم ويقلدهم فى جميع عاداتهم،ولو أنه لم يكن يشبههم لأن عينيه لم تكونا منحرفتين كعيون التتار .

وكان يحيط بقصر الخان ذى الأحجار الملونة حديقة متسعة يلتف عليها سور طوله اثنا عشر ميلا ترتع فيها قطعان من الغزال والحيوانات الأخرى . دعا الخان ماركو لمصاحبته فى أثناء الصيد فى حديقة القصر،وكان الصيد يتم أحياناً بواسطة الصقور، وكان الخان يحتفظ بأعداد كبيرة منها فى أقفاص بالحديقة . اشتد عجب ماركو عند ما رأى فهداً قابعاً على فرس وراء أحد الحراس وقد ربط بسلسلة من حديد . فاستفسر عن أمره فأخبروه أن هذا الفهد يلعب دوراً كبيراً فى الصيد .

رأى الخان غزالا كبيراً فأعطى إشارة إلى حارس الفهد ففك إساره فقفز الفهد بسرعة وجرى وراء الغزال وقبض عليه من الخلف ثم ثبت أسنانه فى رقبته فوقع الغزال ميتاً على الأرض. وقد سر الخان سروراً



عظيما لسرعة الفهد . ثم حمل الغزال ليوزع لحمه على صقور الصيد .

ثم تقدم الركاب الملكى نحو منزل خشبى جميل بنى بين أشجار الحديقة وثبتته فى الأرض حبال ضخمة متينة . فكان يشبه خيمة كبيرة قالوا لماركو إن التتار وهم قوم رحّل يفضلون سكنى الخيام وإن قبلا خان أمر ببناء هذا المنزل ليشبه خيمة كبيرة يمكن بناؤها وطيها فى وقت وجيز .

ثم توجه الخان نحو حظائر الخيول ليتفقدها ، وكان بهذه الحظائر يقرب من عشرة آلاف من أجود أنواع الخيول البيضاء اللون . وهى خيول تكاد تكون فى مرتبة التقديس يعاقب كل من يجرؤ على الشرب من لبنها عقاباً صارماً . إذ أن لبنها مقصور على أفراد العائلة المالكة وبعض العائلات النبيلة الأخرى مكافأة لها على ماأبلت فى ميادين القتال .

وعندما وصلوا إلى القصر شاهد ماركو مخلوقين عجيبين هما أقرب فى منظرهما إلى الحيوانات منهما إلى الإنسان . شعورهما طويلة قذرة وملامحهما وحشية. لقد قيل له إنهما ساحران فى خدمة الخان العظيم ولهما قوة سحرية غريبة . إنهما يستطيعان أن يمدا الخان فى ولائمه بأقداح بها خمر تنتقل إليه عبر الهواء فإذا شربها رجعت إليهما الأقداح عبر الهواء أيضاً دون أن يلمسها أحد . إنهما يخبران الخان بالأيام السعيدة لتقديم الهدايا والضحايا إلى الآلهة . إنهما يستطيعان إيقاف المطر فوق القصر الإمبراطورى فى حين تهطل الأمطار بشدة فوق الأماكن المجاورة للقصر .

إن كل شخص يخاف هذين الساحرين ، وهما لا يغتسلان ولا يسيران إلا عاريين تقريباً . لقد حذروا ماركو منهما ونصحوه بالابتعاد عنهما خشية على حياته .

## قبلاخان إمبراطور الصين

عرف ماركو الكثير عن حياة الإمبراطور ، فجده جانكيزخان الذى وحّد قبائل التتار وقادهم لغزو العالم . لقد كان العالم يرتعد خوفاً وهلعاً عند سماع اسمه للقسوة التى كان يعامل بها الشعوب المغلوبة على أمرها . استطاع جانكيزخان أن يوحد القبائل التتارية ويوجهها إلى فتح بلاد الصين ذات الثراء الطائل والتاريخ المجيد ، فانطلقت كالوحوش الضارية تثير الرعب فى النفوس وتدمر المدن وتسبى النساء وتأتى على الأخضر واليابس .

كان جانكيزخان يخاطب جنوده بكلمات تثير فى نفوسهم العزة والقوة وتملؤهم رغبة لخوض غمار الحروب . كان يقول لهم إنهم شعب الله المختار وإن جميع خيرات الأرض من حقهم هم وحدهم أما سائر الشعوب فقد خلقوا ليكونوا عبيداً لهم ، وإنه أرسل لتحقيق رسالة سامية هى فتح العالم والقضاء على البرابرة لكى يخلو وجه الأرض للمغول .

كان شعب الصين شعباً مسالماً لا يميل إلى الحرب . فلم يستطع الصمود أمام جحافل التتار ، ولم تمض ثلاث سنوات حتى كانت معظم بلاد الصين فى قبضة المغيرين .

ولم تكن جيوش التتار فى حاجة إلى إمدادات من الطعام إذ كانوا يصحبون معهم قطعانهم الضخمة من الماشية والأغنام، وكان التتارى يستطيع البقاء على صهوة جواده يومين كاملين ، كما كان يستطيع النوم عليه إذا دعت الضرورة إلى ذلك . لم تستطع مدينة أن تصمد أمام هجماتهم العنيفة . لقد صمدت مدينة « هيرات » مدة ستة أشهر دون أن تستسلم فلما احتلوها عنوة قتل بالسيف كل من كان فيها من رجال ونساء وأطفال وكانوا يناهزون المليون والنصف .

انتشر الرعب فى دول أوربا عندما توجهت جيوش جانكيزخان نحو الغرب . وعندما مات جانكيزخان استمر ابنه فى الزحف غرباً فغزا بولندا والمجر وجنوب روسيا . وقد خشى بابا روما وملوك أوربا أن يحتل التتار هذه القارة بأجمعها لأن جيوش أوربا مهما كان عددها لم تكن تستطيع الوقوف أمام جحافل التتار .

نجت أوربا من الغزو التتارى لا لأن جيوشها اتحدت على التتار ، ولكن لأن الخان العظيم قد مات فتوقفت جيوش التتار عن الزحف انتظاراً لأوامر الخان الجديد .

أرسل البابا سفراءه إلى زعماء التتار لكى يوقفوا زحفهم ولكنهم قابلوا هؤلاء السفراء بالسخرية وأخبروهم بأن الزحف لن يلبث أن يبدأ من جديد لاحتلال العالم أجمع .

كان قائد التتار فى ذلك الوقت هو « مانجو » أحد أحفاد جانكيزخان

ولكن « مانجو » مات فى أثناء حصاره لإحدى مدن الصين فخلفه فى قيادة الجيش « قبلاخان » الذى استمر فى فتح الصين وأوقف زحف الجيوش التتارية نحو الغرب .

كان قبلاخان فى الرابعة والأربعين عندما أصبح إمبراطوراً للصين وفى التاسعة والخمسين عندما قابله ماركو. كان هو السيد المطاع فى ربوع الصين جميعاً ، وكانت إمبراطوريته وهى أكبر إمبراطوريات العالم فى ذلك الوقت تمتد من أوربا غرباً إلى بحر الصين شرقاً ومن الأراضى المتجمدة شمالا إلى سهول الهند الحارة جنوباً .

كانت الجيوش التتارية فى زمن ماركو پولو تحت قيادة أبناء قبلاخان ، فأصبح قبلاخان لا يذهب إلى الحرب إلا نادراً ، وأخذ يميل فى أيامه الأخيرة إلى السلام وإلى النهوض بشعوب إمبراطوريته المترامية الأطراف .

لقد كانت هذه الإمبراطورية شاسعة حقًّا قد يصل رسول الإمبراطور إلى إحدى الولايات التابعة له فى زمن لا يقل عن العام ، ولذلك نرى أن أن زعماء التتار الآخرين كانوا يحكمون أقاليمهم كما يشاءون مظهرين ولاء شكليًّا للإمبراطور لبعد الشقة بين هذه الولايات والحكومة المركزية.

وكان جنود التتار يسكنون الخيام بعيداً عن المدن ومعهم ماشيتهم وأغنامهم حتى لا تتأثر روحهم العسكرية بالحياة المترفة فى المدن ، وقد منعهم قبلاخان من الاختلاط بأهل الصين وأجبرهم على أن يحيوا حياة

الرعى والتقشف التى كانوا يحيونها من قبل .

عمل قبلاخان على نشر العلم فرحب بالعلماء من جميع الأجناس وشجع المسيحيين والمسلمين على نشر دياناتهم، وكان قبلاخان متوسط القامة لا هو بالطويل ولا هو بالقصير متناسق التقاطيع له وجه أبيض مشرب بحمرة .

وكان له أربع زوجات فى المرتبة الأولى، يرثه على العرش أكبر أبناء أحدى هذه الزوجات الأربع ، وتحمل كل زوجة منهن لقب الإمبراطورة ولكل منهن قصرها وبلاطها الخاص وحاشيتها التى تتكون من آلاف من أبناء الأسر النبيلة .

وقد اشتهرت نساء إقليم « أنجوت » بجمالهن وبياض بشرتهن، وكانت أعداد كبيرة منهن يخترن بين آن وآخر ويرسلن إلى بلاط قبلاخان . وكان شرفاً عظيما أن تختار إحدى بنات الأسر الكريمة لخدمة الإمبراطور فى جناحه الخاص. وإذا أراد أحد ضباط الخان الزواج أهدى له إحدى هذه البنات لتكون زوجة له .

وكان لقبلاخان اثنان وعشرون ابناً من زوجاته الأربع وأكثر من ذلك بكثير من زوجاته الأخريات . وقد اختير أحد أبنائه ويسمى « جانكيز » أيضاً ليرث عرش أبيه بعد وفاته، ولكن هذا الابن توفى تاركاً ابناً هو حفيد قبلاخان اسمه « تيمور » اختير ليرث عرش جده بعد وفاته .

وكان أبناء قبلاخان ضباطاً فى الجيش ، أما أبناؤه من زوجاته الأربع فكانوا يعينون حكاماً للولايات ليحكموا بين الناس بالعدل وليكونوا جديرين باسم أبيهم العظيم قبلاخان .

وكان الإمبراطور يقضى الفترة بين ديسمبر ومارس من كل عام فى مدينة « كانبالو » قرب بيكين الحالية ، وقد قابله نيقولا وماڤيو پولو لأول مرة فى هذه المدينة ، أما أشهر الصيف الثلاثة فكان يقضيها فى مدينة شاندو الجميلة .

وكان يصل إلى عاصمة ملكه باستمرار آلاف من الأجانب ليقدموا له فروض الطاعة والولاء ، وكان كل من يسير فى شوارع المدينة يسمع لغات متعددة ولهجات مختلفة . وكان السفراء يقابلون بالتكريم ويعاملون بالاحترام . لقد كان قبلاخان يحب الاستماع إلى كل ما يقال عن الأقاليم البعيدة التابعة لملكه .

وكان كثيراً ما يرسل ماركو لأداء مهام خاصة ؛ وكان ماركو يقوم بعمله على خير وجه . وكان فى أثناء رحلاته يلاحظ بدقة كل ما يراه من عادات الشعوب وأخلاقها ، كما كان الإمبراطور يستمع بسرور وشغف إلى كل ما يقصه عليه ماركو پولو .

لقد استطاع ماركو أن يصف كل ما رآه وسمعه بدقة فى مذكراته التى أطلق عليها « كتاب ماركو پولو » . وعلى الرغم من أن كثيراً من الناس فى عهده لم يصدقوا ما كتبه فقد أثبت الرحالة الذين جابوا

هذه البلاد بعد ماركو أن كل ما كتبه صحيح .

إن ماركو پولو يعد الآن أعظم الرحالة الذين جابوا أقطار العالم فى العصور الوسطى .

## قصر قبلاخان فى كانبالو

وعندما انتهى الصيف سافر ماركو پولو مع بلاط الإمبراطور إلى قصره الكبير فى كانبالو . لقد سمع كثيراً عن هذا القصر حتى إذا رآه ملأه دهشة وعجباً . فعندما اقترب من القصور رأى أمامه سوراً طوله ثمانية أميال وقيل له إن هناك ثلاثة أسوار أخرى كل منها طوله ثمانية أميال تحيط بالقصر والحديقة . لقد تعجب ماركو لطول هذا السور وتساءل كم من الوقت تم فيه بناؤه . فقالوا له إن الخان العظيم إذا أراد أن يبنى شيئاً كهذا يقوم آلاف من العمال ببنائه فينتهون منه بسرعة عظيمة .

وفى منتصف كل سور من هذه الأسوار الأربعة بوابه ضخمة إذا ما اجتازها المرء وجد آلافاً من الجند يعيشون فى ثكنات خاصة تحيط بالقصر ، فإذا سار الإنسان ميلا آخر وجد سوراً آخر طوله ستة أميال به بوابة ضخمة أخرى فإذا دخل المرء من هذه البوابة الثانية وجد نفسه فى

حديقة ضخمة ترعى فيها الحيوانات المتعددة الأنواع ، وكانت طرق هذه الحديقة مرتفعة بنحو ستة أقدام عن مستوى الأرض مغطاة بقطع مربعة من الحجارة، فإذا اجتاز المرء سوراً ثالثاً وجد نفسه فى فناء مربع الشكل طول كل قطر منه ميل وفى هذا المربع الأخير كان يوجد قصر الإمبراطور وكان من أعظم مبانى الدنيا فى ذلك الوقت .

لقد دخل ماركو بولو القاعة الكبرى فى القصر الملكى ، وكان سقفها مزيناً بتماثيل الجنود والطيور والحيوانات وقد طليت بالألوان الجميلة . إنها قاعة الطعام حيث يستطيع آلاف من الضيوف تناول الغداء فى وقت واحد .

أما وراء هذه القاعة فكانت توجد غرف زوجات الإمبراطور الأربع وكذلك المخازن التى يحتفظ فيها الإمبراطور بكنوزه من ذهب وفضة ولآلئ وأحجار كريمة . وكان يحتفظ أيضاً بأطباق من الفضة والذهب لتستعمل فى المناسبات العظيمة .

وبالقرب من هذا القصر أمر قبلاخان ببناء تل ضخم يصعد إليه الصاعد بواسطة مائة درجة، وكان هذا التل مغطى بالأشجار الدائمة الخضرة التى كان يغرم بها الإمبراطور غراماً كبيراً ، وكان كلما سمع بوجود شجرة من هذا النوع أمر بنقلها بجذورها العميقة بواسطة الفيلة وغرسها فوق التل . وقد سمى هذا التل بالجبل الأخضر نسبة إلى اخضراره الدائم .

أما المكان الذى أخذت منه الأتربة لبناء هذا التل الأخضر فقد أصبح بحيرة ضخمة تمد مائدة الإمبراطور بأجود أنواع الأسماك .

وعلى الرغم من أن ماركو عاش شهوراً عدة فى هذا القصر فإنه لم يستطع أن يجد طريقه بسهولة بين أجنحته المختلفة .

ويصف ماركو پولو إحدى الحفلات التى كان يقيمها الإمبراطور فى قاعة القصر فى المناسبات الخاصة فيقول .

« إن مقعد الخان يرتفع عن مستوى المقاعد الأخرى فإذا جلس أخذ مكانه فى الناحية الشمالية من القاعة وقد اتجه بوجهه نحو الجنوب . وعن يساره تجلس الإمبراطورة، أما عن يمينه فيجلس أبناؤه وأحفاده وأقرباؤه على مقاعد أقل ارتفاعاً من مقعده بحيث تكون رؤوسهم فى مستوى قدمى الإمبراطور . أما بقية النبلاء فيجلسون على مقاعد أقل ارتفاعاً من المقاعد السابقة. ثم يجلس بعد ذلك زوجات النبلاء وضباط الجيش. وتنظيم المقاعد بحسب القيمة الاجتماعية للأفراد فيستطيع الخان بذلك رؤية الجميع .

ولما كانت القاعة لا تتسع لمقاعد تكفى جميع الزائرين فإن غالبية النبلاء والضباط كانوا يأكلون وهم جالسون على السجاجيد فى حين كان يقف خارج القاعة أناس من مختلف الدول يحملون الهدايا النفيسة للإمبراطور. وكان هناك ضباط كبار يرشدون الغرباء الذين يصلون وقت هذه الوليمة ولا يكونون على علم بتقاليد البلاط ، وكان يمر هؤلاء الضباط بالضيوف

فيستفسرون عن طلباتهم وعما إذا كانوا يريدون خمراً أو لبناً أو لحماً أو أى طعام آخر .

وكان يقف على كل باب من أبواب هذه القاعة ضابطان يمسك كل منهما بعصاه ليمنع الناس من لمس عتبة القاعة عند دخولهم أو خروجهم. إنهما يأمران الناس بالمرور فوقها دون لمسها فإذا لمس شخص هذه العتبة قبض عليه وأخذت منه بعض ملابسه فلا يعيدونها له إلا إذا دفع غرامة . أما إذا كان هذا الشخص رجلا عاديًّا لا ينتمى إلى طبقة النبلاء أو ضباط الجيش فأنهم يعاقبونه بالضرب . لقد كانوا يتشاءمون إذا لمس شخص عتبة هذه القاعة .

وكان من المحتم على الخدم الذين يقدمون الطعام والشراب إلى الإمبراطور أن يغطوا أفواههم وأنوفهم بقطع من الحرير حتى لا تلمس أنفاسهم طعام الإمبراطور . فإذا طلب الإمبراطور خمراً قدمه إليه شاب من النبلاء ثم تراجع إلى الوراء ثلاث خطوات ثم انحنى احتراماً للإمبراطور ، وفى هذه اللحظة يلقى جميع الحاضرين بأنفسهم على الأرض ، ثم تبدأ الفرق الموسيقية فى اللعب ويستمرون على ذلك حتى ينتهى الإمبراطور من الشراب ، ثم تدخل فرق من الممثلين والموسيقيين والحواة كل يحاول أن يظهر براعته فى أداء أدواره ، فإذا ما انتهى كل هذا تفرق الجميع وانتهت الوليمة .

## أعياد قبلاخان

ويصف ماركو بولو الأعياد التى كان يحتفل بها التتار فى عهد الإمبراطور قبلاخان كما يصف الاحتفالات التى كانت تقام بمناسبة خروج الإمبراطور للصيد .

كان التتار يحتفلون بميلاد قبلاخان فى الثامن والعشرين من شهر سبتمبر من كل عام ، فيخرج الخان فى ذلك اليوم وقد ارتدى حلة موشاة بالذهب يحيط به النبلاء وضباط الجيش وهم يلبسون الأقمشة الحريرية البديعة التى تشبه الذهب فى لونها؛ وكان الخان فى مثل هذه المناسبات يهدى المقربين إليه من النبلاء الملابس المرصعة باللآلئ والأحجار الكريمة وكان على النبلاء أن يلبسوا زياً يشبه فى مظهره الخارجى زى الإمبراطور ولو أنه أقل منه قيمة، ونستطيع من ذلك أن نعرف مدى ما كانت عليه ثروة الإمبراطور قبلا خان فى ذلك الحين .

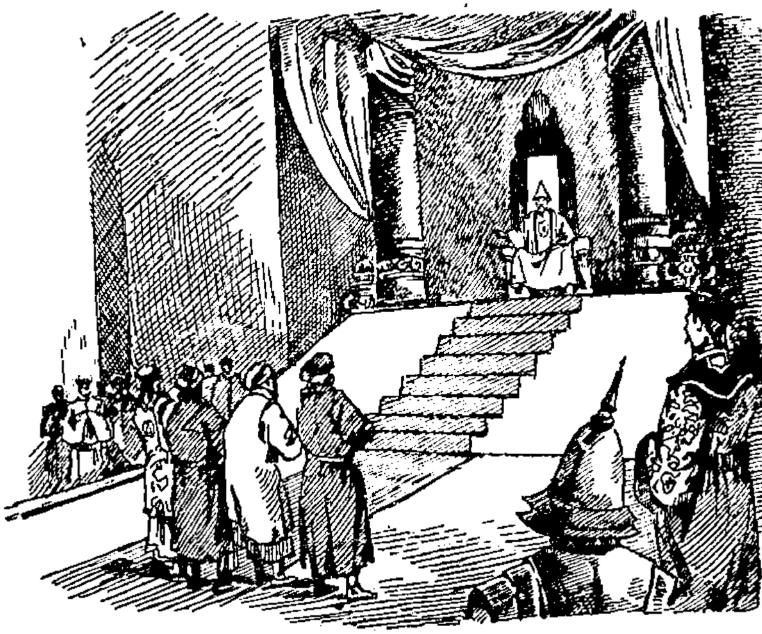
وكانت تصل إليه فى هذه المناسبة الهدايا العظيمة من رعاياه فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وفى هذا اليوم أيضاً كانت تقام الصلوات

فى جميع المعابد الإسلامية والمسيحية والبوذية على السواء داعية إلى الله أن يحفظ عرش الإمبراطور ويمنحه العمر الطويل والصحة والغنى .

ثم يصف ماركو پولو عيد رأس السنة – أو العيد الأبيض كما كان يسميه التتار – إن رأس السنة عند التتار كانت فى أول شهر فبراير وكان من عادة الخان والشعب فى هذا اليوم أن يلبسوا الملابس البيضاء لأنهم يتفاءلون بها ، وقد استعد آل پولو لهذا العيد استعداداً خاصًّا بأن اشترى كل منهم ملابس حريرية بيضاء ،وكان الناس يتبادلون الزيارات والهدايا بهذه المناسبة .

وفى هذا اليوم أيضاً كانت تعرض الفيلة الملكية وهى تبلغ خمسة آلاف فيل وقد غطيت بأقمشة حريرية موشاة بالذهب ومزينة برسوم الطيور والحيوانات ، وكانت هذه الفيلة تحمل صناديق ضخمة تحوى الأوانى الذهبية والفضية التى تستعمل فى القصور الملكية .

وفى صباح يوم العيد يستقبل الإمبراطور النبلاء والضباط وكبار الموظفين فى القاعة الكبرى . وكل من لا يجد له مكاناً فى هذه القاعة يقف خارجاً بحيث يستطيع رؤية الإمبراطور . فإذا انتظم جميع الناس على حسب درجاتهم وقف أحد موظفى القصر يقول بصوت عال : « انحنوا احتراماً للإمبراطور وقدموا له احتراماتكم » فينحنى الحاضرون حتى تلمس رؤوسهم الأرض ثم يصيح الموظف ثانياً : « ليبارك الله الإمبراطور ويمنحه



السعادة الدائمة » فيرد الحاضرون : « فليمنحه الله ذلك » ثم يقول مرة أخرى : « ليهبه الله القوة والرخاء وليمنح شعبه السلام والسعادة » فيجيب الناس : « فليمنحه الله ذلك » .

ثم يقدمون هداياهم إلى الإمبراطور فيختبرها، ثم تقام المآدب ويأخذ كل شخص مكانه على حسب مرتبته ، فإذا ما انتهت الحفلة انفض الجميع وذهب كل إلى حال سبيله .

لقد عرفنا مدى هواية الإمبراطور للصيد . كان يحتفظ بعدد كبير من الفهود والنمور لمطاردة الغزلان والدببة أثناء الصيد، وكانت هذه النمور تحمل إلى مكان الصيد فى أقفاص على عربات، كما كان لدى الإمبراطور عدد ضخم من النسور يستعملها فى صيد الذئاب ولايستطيع ذئب مهما بلغت قوته أن يهرب من مصيره المحتوم على يد أحد هذه النسور .

ويقوم برعاية كلاب الصيد اثنان من النبلاء يعمل تحت سلطة كل منهما عشرة آلاف رجل ، ولكل فريق زى خاص ذو لون أحمر أو أزرق يلبسونه إذا ما خرجوا للصيد مع الإمبراطور .

أما عدد كلاب الصيد فلم يكن يقل عن خمسة آلاف كلب مدربة تدريباً حسناً . فإذا بدأ الصيد يقوم عشرون ألف رجل بعمل دائرة ضخمة تشمل مساحة واسعة جداً من الأرض وقد يمضى يوم كامل قبل أن تكتمل هذه الدائرة الضخمة ، ثم تأخذ هذه الدائرة تضيق دافعة أمامها كل ما يكون بها من حيوان ، فترى الصيادين والكلاب وهى تطارد الغزال والدببة وغيرها من الحيوانات فى جميع الاتجاهات .

وفى شهر مارس يتجه الإمبراطور بموكب الصيد نحو الشمال الشرقى حتى يصل إلى مسافة يومين من المحيط ومعه صقوره وبزاته لكى يقوم

بالصيد على شواطئ الأنهار ؛ وكان كل صقر من هذه الصقور يحمل لوحة صغيرة من الفضة مثبتة فى ساقه كتب عليها اسم حارسه، فإذا ما أمسك أحدهم بصقر من هذه الصقور استطاع أن يعرف اسم حارسه فيسلمه إليه . أما إذا لم يعرف حارس الصقر فإنه يسلم إلى موظف خاص ينصب خيمته فى مكان مرتفع بحيث يراه الجميع فيذهب إليه كل من فقد صقراً أو بازاً فيجد طيره سالماً هناك .

أما الإمبراطور فكان يركب هودجاً نصب على ظهور أربعة فيلة مدربة لهذا الغرض وهو مريح وجميل تغطيه من الخارج جلود النمور وهو مبطن من الداخل بأقمشة من الحرير موشاة بالذهب . ويتخذ الإمبراطور هذه الوسيلة فى رحلاته لأنه لا يتحمل ركوب الخيل لمرضه « بالنقرس » وهو مرض يصيب المفاصل . ويحتفظ معه فى هودجه باثنى عشر صقراً واثنى عشر ضابطاً من حراس الصقور . فإذا رأى الإمبراطور طيراً أمر حارس الصقر بفك إساره فيندفع الصقر نحو الطير ويطارده حتى يقضى عليه .

فإذا انتهى اليوم اتجه الجميع إلى المعسكر الملكى حيث نصبت خيام الإمبراطور والنبلاء والضباط والسيدات وكن يشتركن فى هذه الرياضة أيضاً . وكان هناك مالا يقل عن عشرة آلاف خيمة من جميع الأنواع .

ويصف ماركو خيمة الإمبراطور فيقول إنها من الفخامة بحيث

تتسع لعشرة آلاف شخص على الأقل، وإن مدخلها يتجه نحو الجنوب، وإلى الناحية الشرقية من هذه الخيمة خيمة أخرى متصلة بها يستقبل فيها الإمبراطور من يريد التحدث إليهم حديثاً خاصاً . أما بقية الخيام فهى مقامة وراء الخيمة الملكية، ولكنها ليست متصلة بها . وتغطى أرض الخيمة الفراء الثمينة وجلود النمور المخططة والسجاجيد الفاخرة، أما الحبال التى تربط بها هذه الخيمة فمصنوعة من الحرير .

ويبقى الخان طول الربيع وهو يزاول هذه الهواية المحببة إلى نفسه فإذا بدأ الصيف قفل راجعاً إلى عاصمة ملكه .

## رحلة إلى الأقاليم الغربية والجنوبية

وثق الإمبراطور قبلاخان بماركو پولو فأرسله كسفير له فى رحلة إلى الأقاليم الغربية من الصين، ولم يبين ماركو پولو سبب قيامه بهذه الرحلة ولكن قد يكون من المحتمل أنه قام بها ليكتب تقارير عن الحالة فى هذه المناطق .

استغرقت هذه الرحلة أربعة أشهر، ويقول إنه رأى على بعد عشرة أميال من العاصمة قنطرة عظيمة بيضاء اللون طولها ثلثمائة ياردة . إنه لم ير قنطرة بهذه الضخامة وهذا الاتساع، إذ يستطيع عشرة فرسان السير

عليها جنباً إلى جنب ؛ وكانت القنطرة مرتكزة على خمسة وعشرين عموداً ، كما كان لها جانبان مرتفعان يمنعان المارة من السقوط في الماء .

وعلى بعد ثلاثين ميلا من العاصمة وصل ماركو إلى مدينة « جوزا » ويعمل سكانها فى التجارة والصناعات الخفيفة وصناعة المنسوجات الدقيقة. لقد سر الناس برؤية سفير الخان العظيم الذى يتكلم لغة التتار ويلبس ملابسهم على الرغم من أنه أجنبى من بلاد بعيدة ؛

ويصف ماركو پولو أشجار التوت فيقول إنه تعجب إذ رأى الناس يجمعون أوراقها لتغذية دود القز . لقد قالوا له إن هذه الحشرة الصغيرة تنتج لهم خيوط الحرير التى يصنعون منها الملابس الحريرية الفاخرة .

ولم يكن ماركو پولو يسافر وحيداً فى رحلاته بل كان يسير فى ركابه الجنود والموظفون والخدم ، وكان يسافر عادة على ظهور الخيل وفى بعض الأحيان كان يسافر على شىء يشبه المقعد يحمله أربعة رجال وكان كلما نزل فى مدينة وجد منزلا خاصاً قد جهز له ولمن معه .

وعند رجوعه قدم للإمبراطور تقريراً مفصلا عن رحلته ووصف له كل ما رآه وصفاً مسهباً أعجب به الإمبراطور إعجاباً عظيما .

# الإمبراطور قبلاخان يذهب إلى الحرب

كان قبلاخان قد ترك قيادة جيوشه لأبنائه الأربعة ولكنه في هذه الحملة وجد أنه من الضروري أن يقود جيوشه بنفسه. لقد أراد أن يقضي على ثورة رأسها اثنان من زعماء التتار وأقرباء قبلاخان «هما» «نايان» و«كايدو» وكان الأول يحكم الأقاليم الواقعة إلى الغرب من الصين. أما كايدو فكان يحكم الأقاليم التي إلى الشرق من تركيا مباشرة. لقد أرادا الاستقلال عن قبلا خان فجهزا جيشين عظيمين بلغ عددهما أربعمائة ألف جندي.

أغلق قبلاخان جميع الطرق والممرات التي تؤدي إلى الغرب حتى لا تصل أخبار استعداداته الحربية إلى أعدائه ثم جمع جيشاً من ثلثمائة وستين ألفاً من المشاة ومائة ألف من الفرسان.

وعندما أعطى قبلاخان الأمر بالمسير قرعت الطبول وتقدمه الجيش نحو الغرب. وكان قبلاخان يأمل أن يفاجئ «نايان» قبل أن يضم إليه جيش «كايدو». وقد صحب ماركو پولو جيش الإمبراطور كضابط

من ضباط الحرس الخاص، وكان الجيش التتارى يتقدم بسرعة كبيرة ليل نهار . ولم تمض خمسة وعشرون يوماً حتى كان جيش قبلاخان ملتحماً مع جيش نايان فى معركة عنيفة .

وكان قبلاخان يعطى أوامره وهو فى هودجه الذى بنى على ظهور أربعة فيلة مدرّبة .

قسم قبلاخان جيشه إلى ثلاثة أقسام وأمر الجناحين الأيمن والأيسر بالإحاطة بقوات العدو .

ثم عزفت موسيقى الحرب فارتفعت أصوات الجنود بنشيد حربى ثم قرعت الطبول وأعطيت الإشارة ببدء الحرب فتقدم الجناحان الأيمن والأيسر . وكانت طبول الخان الخاصة تقرع فتملأ قلوب الجنود حماسة للقتال .

التحم الجيشان فى معركة دموية هائلة سقط فيها ألوف من الجنود والخيل . لقد كان عدد القتلى من الفريقين ضخماً فلم يكن من السهل على أى من الجيشين التقدم فوق الجثث المبعثرة فى الميدان . وكان الإمبراطور فى هودجه يلاحظ المعركة ويوفد رسله إلى قواده حاملين أوامره .

استمرت المعركة من الصباح إلى الظهر وأظهر فيها « نايان » وجيشه جلداً وشجاعة . لقد فضلوا الموت على التراجع أمام جيوش قبلاخان . وعند الظهر أحس نايان أن جيوش الإمبراطور فى طريقها

إلى تطويق جيشه من جميع الجهات فحاول الحرب ولكنه وقع أسيراً في يد قبلاخان الذى أمر بقتله فقتل فى الحال . لقد لفوه فى سجادتين طويلتين أمسك بهما مجموعة من الرجال الأقوياء وهزوهما بعنف حتى قضى عليه .

وبانتهاء الحرب رجع الإمبراطور منتصراً إلى عاصمة ملكه .



## ابنة كايدو

لم يصل كايدو فى الوقت المناسب ليشترك فى المعركة إذ أنه قفل راجعاً إلى مملكته عندما علم بموت « نايان » وانهزام جيشه .

ويقص ماركو قصة بنت كايدو وكان اسمها « إيجاروك » ومعناها فى لغة التتار « القمر المضىء » وكانت على قسط كبير من القوة بحيث لم يستطع شاب فى مملكة أبيها أن يتغلب عليها فى المصارعة .

أراد أبوها أن يزوجها ولكنها رفضت قائلة إنها لن تتزوج إلا الشخص الذى يستطيع التغلب عليها فى المصارعة . وأرسلت بذلك الرسل إلى جميع أنحاء البلاد .

وقد أتى إلى عاصمة المملكة كثير من الشباب الأقوياء ليجربوا حظهم مع الأميرة ، وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تقام باحتفال عظيم فى القاعة الكبرى بالقصر ويتصدره الملك ويحضره الأمراء والنبلاء . كانت الأميرة تدخل القاعة وقد ارتدت زياً خاصاً بالمصارعة ثم يتبعها غريمها . وكان الاتفاق أنه إذا تغلب عليها غريمها أصبح من حقه الزواج بها ، أما إذا تغلبت هى فعليه أن يقدم لها مائة حصان . وقد كسبت الأميرة بهذه الطريقة أكثر من عشرة آلاف حصان .

وأخيراً وصل إلى عاصمة كايدو أحد أبناء الملوك وكان جميل المنظر صغيراً وقويًّا أتى ليجرب حظه مع الأميرة ، وكان معه ألف حصان من جياد الخيل أعلن عن استعداده للنزول عنها إذا ماتغلبت عليه الأميرة .

وقد استقبله الملك بكثير من الترحيب وكم تمنى الملك لو تغلب هذا الأمير الجميل على ابنته حتى تتزوج به . ثم بدأ الصراع وكان عنيفاً أظهر فيه الأمير كثيراً من ضروب القوة ولكن أمره انتهى كما انتهى أمر غيره من المتنافسين وانتصرت عليه الأميرة وبذلك خسر الأميرة وخسر خيوله الألف .

وكان أبوها يصحبها دائماً فى حروبه وكانت على قسط كبير من الشجاعة والجرأة إذ استطاعت مرة أن تندفع بين صفوف الأعداء وتقبض على فارس وتأخذه أسيراً إلى أبيها .

## عادات غريبة

وصف لنا ماركوپولو كثيراً من عادات الشعوب التى زارها وهاهوذا يصف بعض العادات التى رآها فى إحدى مناطق الصين :

فإذا وضعت امرأة طفلا تركت فراشها ثم غسلت طفلها وألبسته ، ثم

لا يلبث زوجها أن يأخذ مكانها فى الفراش وبجانبه الطفل . فإذا بكى الطفل جوعاً جلست الأم على الفراش بجانب زوجها وأرضعته ثم تذهب إلى عملها فى المنزل تجهز الطعام لزوجها الذى يبقى فى الفراش مدة أربعين يوماً وبجانبه الطفل ، وفى تلك المدة يزوره أصدقاؤه وأقاربه مهنئين إياه على ولادة الطفل .

وهم يستعملون النقود الذهبية فى معاملاتهم ، أما فى المعاملات ذات القيمة النقدية الضئيلة فإنهم يستعملون الأصداف البيضاء التى تجمع من سواحل البحر فى سيام ويحملها التجار إلى الصين .

ويغطى الرجال والنساء أسنانهم بطبقة رقيقة من صفائح الذهب توضع بمهارة بحيث تبقى دائماً فى مكانها ، وهم يعتقدون أن هذه الصفائح تضفى على أسنانهم جمالا وتحفظها من التآكل .

ورجال الصين مغرمون بالوشم الذى يعمل بواسطة خمس إبر حادة تغرز فى الجلد حتى يدمى ثم تملأ هذه الثقوب بمادة سوداء فإذا ما التأمت هذه الثقوب بقى الوشم الأسود ظاهراً .

وفى إحدى مناطق الصين لا توجد معابد للصلاة لأنهم يعبدون أجدادهم ويقولون فى ذلك إنهم اكتسبوا الحياة عن طريقهم . إنهم يصلون لهم ويزورون مقابرهم بانتظام ويهتمون بهذه المقابر والعناية بها اهتماماً كبيراً .

والناس يأكلون لحم الطيور والأغنام والأبقار نيئة بعد أن يقطعوها قطعاً صغيرة يغطونها بالملح ويضيفون إليها التوابل .

أما فى أمراضهم فكانوا يعتمدون فى علاجها على السحر .

ومن أعظم مدن الصين مدينة « هانج تشاو » ويؤمن سكان هذه المدينة إيماناً راسخاً بالمنجمين إذ يقولون إن للنجوم تأثيراً كبيراً فى حياة الناس وإنه يجب على المرء أن يستشير المنجمين قبل قيامه بأى عمل كرحلة أو تجارة أو زواج حتى يبينوا له الأيام السعيدة التى يجب أن يقوم فيها بأداء هذا العمل ليكون النجاح رائده . ويوجد هؤلاء المنجمون فى كل مكان : فى الأسواق وفى الميادين العامة وفى الشوارع الرئيسية وكلهم مستعدون لدراسة نجم كل شخص وإرشاده إلى ما فيه صلاحه .

وإذا مات شخص غنى لبس أقاربه رجالا ونساء الملابس القديمة الخشنة وساروا وراء نعشه حتى يصلوا إلى المكان المعد لحرق جثته وتصحبهم فى السير إلى هذا المكان جماعة من الموسيقيين والمنشدين الذين يتلون الدعوات للآلهة . فإذا تصاعدت النيران ألقوا فيها بأوراق عليها رسوم لخدم من النساء والرجال ولخيول وجمال وملابس حريرية ونقود ذهبية وفضية ، يعملون ذلك وهم يعتقدون أن الميت سيمتلك كل هذا فى العالم الآخر وسيتاح له بذلك المال والثروة والملابس والخدم .

# استيلاء التتار على هانج تشاو

استولى التتار على مدينة هانج تشاو قبل وصول ماركو پولو إلى الصين، وكانت تعتبر فى ذلك الوقت أكبر مدن العالم وأكثرها مدنية . وقص أحد التجار وكان فى خدمة ملك المدينة كيف استولى التتار عليها فقال :

كان يحكم هذه المدينة ملك عادل يكره الحرب اسمه « فاكفور » وكان على قسط كبير من الثروة لا يفوقه فى ذلك إلا قبلاخان . وكانت مدينة هانج تشاو محصنة تحصيناً طبيعيًّا إذ كانت تحيط بها الأنهار والقنوات العميقة من كل جانب مما جعل مهمة الدفاع عنها مهمة سهلة ولم يكن ثمة داع لوجود جيش قوى أو جنود مهرة للدفاع عنها .

لم يكن الملك فاكفور يخشى أى هجوم ولذلك لم يفكر فى شيء إلا إمتاع نفسه فكان فى قصره ألف امرأة جميلة يقضى كل وقته معهن . ولكنه كان مع ذلك يحب السلام والعدالة ويعاقب كل من ارتكب جريمة عقاباً صارماً . كانت حوانيت المدينة تبقى مفتوحة ليل نهار دون أن يخشى عليها من اللصوص كما كان التجار يسيرون من مدينة إلى أخرى عبر مملكته دون أن يجرؤ قاطع طريق على مهاجمتهم .

وكان فاكفور رجلا رحيا يساعد الفقراء . لقد وجد أن كثيراً من الفقراء يتركون أطفالهم فى العراء حتى يموتوا لعجزهم عن إطعامهم فأمر بجمع هؤلاء الأطفال والعناية بهم فى ملجأ خاص ، وكان يجمع منهم سنويًّا ما يقرب من عشرين ألف طفل ، فإذا شبوا عن الطوق تعلموا بعض الحرف ثم تزوجوا ببنات من نفس هذا الملجأ .

أما قبلاخان فكان من طراز آخر فى أخلاقه وعاداته ، ولم يكن يفكر إلا فى الحرب واغتصاب الممالك ، فصمم على ضم مملكة فاكفور إلى إمبراطوريته الشاسعة . وفى عام ١٢٦٨ جهز جيشاً ضخماً لهذا الغرض تحت إمرة أحد قواده المدعو « بايان » ومعناها « ذو المائة عين » .

كان لقبلاخان أسطول ضخم أبحر به حتى الساحل المقابل لمملكة فاكفور ، كما احتل الجيش كل المدن الصغيرة وهو فى طريقه إلى عاصمة المملكة هانج تشاو حيث كان يعيش الملك مع نسائه الجميلات . امتلأ قلب فاكفور رعباً وخاف على حياته ، فركب مركباً هرب به إلى جزيرة نائية وسط المحيط حيث بقى فيها طول حياته .

أما مهمة الدفاع عن المدينة فقد تركها لزوجته الملكة وكانت أكثر شجاعة من زوجها . لقد أخبرها السحرة أن هذه المدينة لن يتم فتحها إلا على يد قائد ذى مائة عين وقد شجعها هذا على الدفاع لأنه لا يعقل أن يكون لقائد ما مائة عين ولكنها عندما سألت عن اسم القائد وعرفت

أن اسمه ذو المائة عين امتلأت رعباً ولم تجد بداً من الاستسلام .

وبذلك استطاع التتار احتلال المدينة العظيمة ثم احتلال باقي مملكة فاكفور دون حرب ، وأرسلت الملكة إلى بلاط قبلاخان حيث استقبلها استقبالا كريماً وأسكنها قصراً عاشت فيه معززة مكرمة حتى وفاتها .

## مدينة هانج تشاو

لما رجع ماركو بولو إلى أوربا ووصف مدينة هانج تشاو التي زارها عدة مرات لم يصدق كل من سمعه أن هناك في الشرق البعيد مدناً أكبر من مدن أوربا وأكثر مدنية منها . وقد ذكرته مدينة هانج تشاو بقنواتها الكثيرة وقناطرها المتعددة بمسقط رأسه البندقية فوصفها وصفاً جميلا .

يقول ماركو بولو إن مدينة هانج تشاو تحتل مساحة لا تقل عن مائة ميل مربع ويسكنها أناس لا يمكن حصرهم وتخترقها قنوات كثيرة إذ أنها تقع بين نهر عظيم وبحيرة كبيرة .

وشوارع المدينة طويلة منسقة وبها أسواق متعددة دائمة الازدحام ويستطيع المرء أن يصل من مكان إلى مكان بالمدينة بواسطة القنوات أو الشوارع وبها عشرون ألف قنطرة والقناطر المقامة على القنوات الكبيرة

مرتفعة فتستطيع السفن الكبيرة السير تحتها كما تستطيع العربات المرور فوقها .

وهانج تشاو مدينة تجارية وصناعية يأتيها التجار من شتى الممالك وبها عشرة ميادين ضخمة تقام فيها الأسواق عدا الحوانيت المقامة على جوانب الشوارع .

والشارع الرئيسى واتساعه أربعون ياردة يخترق المدنية من الشمال إلى الجنوب ماراً بجميع الميادين ، وتقام الأسواق ثلاث مرات فى الأسبوع وتزدحم كل سوق من هذه الأسواق بما لا يقل عن خمسين ألفاً من الناس للبيع والشراء .

وبالمدينة آلاف من المصانع التى تقوم بصناعة النسيج والخزف والورق والجلود وسروج الخيل .

ويكره سكان هذه المدينة الحرب كما يحتقرون الجنود وخاصة جنود قبلاخان الذى احتل مدينتهم ، وهم لا يستعملون السلاح ولا يحتفظون به فى منازلهم ، وهم على وفاق دائم مع جيرانهم ، ويعاملون زوجاتهم بكل احترام ويعطونهن مطلق الحرية .

وبالمدينة كثير من الأجانب الذين يأتون للتجارة وهم محل حفاوة من سكان المدينة يدعونهم إلى منازلهم ويذللون جميع العقبات التى تعترض طريقهم .

وعلى شواطئ البحيرة توجد مساكن الأغنياء كما يوجد كثير من المعابد ، وبالبحيرة جزيرتان بكل منهما قصر ضخم ذو حجرات متعددة فإذا أراد أحد الزواج مثلا أو إقامة احتفال كبير استأجر أحد القصرين فيجد به كل ما يحتاج إليه من أطباق ومفارش وأدوات فضية ومقاعد وخدم .

وبالبحيرة كثير من القوارب التى تؤجر للتسلية وقضاء الوقت وهى كبيرة يتسع كل منها لعشرين شخصاً . ويجلس الناس فى غرفة خاصة بالقارب فى حين يجلس النوتى فوق هذه الغرفة بيده المجداف الذى يسير به قاربه .

وإنه لمنظر رائع حقاً أن يرى الإنسان وهو يتنزه فى قاربه منظر المدينة العظيمة بقصورها ومعابدها وحدائقها ومنظر القوارب الأخرى المزدحمة بالناس وهم يغنون ويعزفون على الآلات الموسيقية .

إن سكان هانج تشاو يميلون إلى هذا المرح البرىء ، فالتاجر إذ يغلق حانوته والصانع إذ يترك مصنعه لا يفكر إلا فى قضاء بقية اليوم فى مرح وسرور مع زوجته وأبنائه إما فى هذه القوارب أو فى عربات تجرها الخيل وتجوب شوارع المدينة العظيمة .

والعربات فى هانج تشاو طويلة ضيقة مقفلة ولها ستائر ومساند من الحرير يستأجرها النساء والرجال ليجوبوا شوارع المدينة المتسعة رغبة فى النزهة وقضاء الوقت .

وشوارع المدينة مبلطة بالحجارة والطوب ومزودة بالمجارى التى تحمل مياه الأمطار إلى القنوات ولذلك كانت الشوارع جافة على الدوام .

هذه هى مدينة هانج تشاو العظيمة كما يصفها ماركو پولو الذى يقول إنه زارها عدة مرات وإنه لم ير لها مثيلا بين مدن العالم أجمع .

## أخمث الشرير وزير قبلاخان

كان أخمث وزير قبلاخان من أهم موظفى الخان العظيم وكان له نفوذ ضخم فى البلاط الإمبراطورى ، وكان هذا الوزير مكروهاً من ماركو پولو ومن الشعب على حد سواء ، ولكنه لما اتصف به من ذكاء حاد استطاع أن يحتفظ بمركزه لمدة طويلة . كان الإمبراطور ينفذ كل رغباته ، وكان يثق به ثقة مطلقة حتى قال بعض الناس إن أخمث كان يزاول السحر حتى يحتفظ به قبلاخان .

كان فى استطاعة الوزير أن يعين أى شخص فى أى مركز مهما بلغ ، وكان فى استطاعته أن يطرد من يشاء من كبار الموظفين ، كما كان فى استطاعته أيضاً الحكم بالموت على من يشاء ، وما كان عليه إلا أن يشير بذلك على الإمبراطور فينفذ الإمبراطور رأيه دون مناقشة .

لم يجرؤ أحد من الشعب على معارضة ذلك الوزير لقوته ونفوذه لدى قبلاخان ، وكان كبار الموظفين يرتعدون خوفاً عند ذكر اسمه ، فإذا اتهم الوزير أحد كبار الموظفين لم يستطع أحد أن يشهد فى مصلحة هذا الموظف خوفاً على حياته من أخمث.



وقد زاد من كراهية الناس له أنه إذا رأى امرأة جميلة استولى عليها فإذا كانت غير متزوجة أجبرها على الزواج منه ، أما إذا كانت متزوجة فإنه يتهم زوجها بأية جريمة ، وبذلك يستطيع التخلص منه . وإذا عرف أن لشخص ما بنتاً جميلة أرسل إليه أتباعه طالبين إليه تزويج ابنته إلى الوزير فى مقابل تعيينه فى وظيفة كبيرة فلا يسع الرجل إلا الرضوخ لأوامر الوزير .

جمع أخمث ثروة طائلة بطرق غير مشروعة وكان له خمسة وعشرون ابنا احتلوا المراكز الرئيسية فى الدولة وكانوا يرتكبون أبشع الجرائم وأحطها اعتماداً على ما لأبيهم من نفوذ فى البلاط الإمبراطورى . ومن العجيب أن هذا الوزير استمر اثنتين وعشرين سنة وهو يحتل هذا المركز دون أن يفطن الإمبراطور إلى حقيقته وإلى شعور الشعب نحوه .

وأخيراً صمم بعض الصينيين الذين لاقوا الذل والهوان على يديه

على التخلص منه بقتله ثم القيام بثورة ضد الإمبراطور نفسه .

وكان على رأس المؤامرة ضابط صيني شجاع هو « شنشو » وكان أخمث قد اغتصب أخته وابنته وزوجته ، وقد اتفق شنشو مع صيني آخر هو « فانشو » وهو قائد لفرقة عددها عشرة آلاف جندي ، وقررا أن أنسب وقت للقضاء على الوزير هو عندما يكون قبلا خان بعيداً عن عاصمة ملكه . وكان الإمبراطور سينتقل من « كانبالو » لقضاء ثلاثة أشهر في شاندو تاركاً أخمث لتولى شئون العاصمة .

أرسل المتآمرون الرسل إلى جميع الزعماء الصينيين في المناطق المجاورة وأخبروهم أنهم إذا ما رأوا النار مشتعلة على قمة تل مجاور كان عليهم أن يقتلوا كل ذي لحية ، إذ كان التتار والمسلمون يتركون لحاهم دون الصينيين . وكان الصينيون على استعداد لتنفيذ ذلك لأنهم يكرهون التتار الذين احتلوا ديارهم وحكموهم كما كانوا يكرهون المسلمين الذين عينهم التتار حكاماً عليهم من قبلهم .

وفي ذات ليلة بعد أن كان الإمبراطور قد انتقل ببلاطه إلى « شاندو » دخل الضابطان شنشو وفانشو القصر سراً . وجلس فانشو على كرسي جانكيز ابن الإمبراطور وأنار الشموع ثم أرسل رسالة إلى أخمث يخبره بأن الأمير جانكيز وصل فجأة ويريده . دهش أخمث لوصول الأمير المفاجئ وأسرع إلى القصر وفي طريقه قابله أحد ضباط الحرس وسأله

عن سبب مجيئه إلى القصر فأخبره أحمث أنه أتى لرؤية الأمير جانكيز ، فشك الضابط فى هذه الرواية وأرسل معه ثلة من الجند . وعندما رأى أحمث الشموع مضاءة أمام كرسى جانكيز ورأى الأمير جالساً على كرسيه انحنى احتراماً للأمير . ففاجأه شنشو وكان مختبئاً وراء الباب بضربة من سيفه فصلت رأسه عن جسمه .

وما كاد ضابط الحرس يرى هذا حتى تأكد أن هناك خيانة فرفع قوسه وصوبه إلى فنشو فقتله بضربة مباشرة فى قلبه ثم قبض على شنشو . لقد نجحت المؤامرة فى القضاء على الوزير أحمث ولكنها أخفقت فى الثورة على الإمبراطور .

أرسلت الرسل إلى قبلاخان تصف له المؤامرة فأمر بإجراء تحقيق دقيق وبمعاقبة المتآمرين عقاباً صارماً .

وعندما رجع الإمبراطور إلى العاصمة أراد أن يكتشف سر هذه المؤامرة وقد تمكن من معرفة كل شىء عن وزيره الشرير أحمث وعائلته وثبت له أن أحمث قد اغتصب زوجات الكثيرين وبناتهم وبأنه جمع ثروته الطائلة بطرق غير شريفة .

غضب الخان غضباً شديداً لاكتشاف هذه الحقائق التى لم يصدقها أول الأمر لولا تدخل ماركو بولو الذى قال للإمبراطور إن كل ما سمعه عن وزيره صحيح وإن الناس كانوا لا يستطيعون التفوه بكلمة ضد

الوزير لاعتقادهم بأن الخان يثق به ثقة عمياء . تكلم ماركو بشجاعة أعجب بها الإمبراطور الذى اعترف بأنه وضع ثقته فى رجل لا يستحق هذه الثقة وأمر بجثته أن تلقى للكلاب . ثم ضمت كنوز الوزير إلى خزينة الخان وحوكم أبناؤه وعوقبوا جزاء ما اقترفت أيديهم من آثام .

شكر الإمبراطور ماركو لأنه أخبره بالحقيقة كاملة وأعلن أن فانشو وشنشو كانا على حق فيما قاما به وأمر بأن تعامل عائلتهما بالتكريم الذى يتناسب مع شجاعة الرجلين .

## كيف ساعدت عائلة پولو فى احتلال المدينة

عندما وصلت عائلة پولو إلى بلاط قبلاخان لم تكن الجيوش التتارية قد أكملت غزو الصين الجنوبية ، وكانت مدينة « سايان فو » من المدن التى رفضت التسليم ونجحت فى مقاومة الجيوش الغازية لأن الماء يحيط بها من جميع النواحى إلا ناحية واحدة حصنت تحصيناً قوياً بحيث وقفت صامدة أمام التتار .

لاحظ ماركو پولو أن الجيوش التتارية لم تكن تستعمل الآلات قاذفة الحجارة التى كانت تستعمل فى أوربا فى ذلك الوقت فاقترح على الخان أن يضم إلى جيشه فرقة من هذه الآلات ووضع تصميماً لآلة قاذفة

وقدمه إلى الصناع الذين تمكنوا من صناعة عدة آلات منها فى وقت قصير ثم جربت إحداها بحضور الخان فسر بها سروراً بالغاً إذ نجحت فى إلقاء حجارة تزن القطعة منها ثلثمائة رطل .

نقلت هذه الآلات على سفن كبيرة إلى الجنوب وكان الجيش التتارى لا يزال محاصراً المدينة . واستطاعت هذه الآلات أن تدك المدينة دكًّا حتى ملأ الرعب قلوب سكانها من الصينيين وقرروا التسليم حتى لا يكون مصيرهم الفناء التام على يد التتار .

## الفنون عند الصينيين

كانت الفرصة مهيأة أمام ماركو پولو وهو يعمل فى بلاط قبلاخان ليطوف بالإمبراطورية الصينية . لقد وجد نفسه أمام شعب أكثر مدنية من سكان أوربا كما دهش من رقة الصينيين وأدبهم وصداقتهم للغرباء وأمانتهم فى معاملاتهم وحبهم لمختلف الفنون .

كانوا يزينون بيوتهم من الخارج بالنقوش والألوان الجميلة أما من الداخل فكانت نظيفة ومريحة . أما فى وجباتهم فكانوا يستعملون أجمل أنواع الآنية والأطباق والفناجين المصنوعة من الخزف الرقيق ذى الأشكال الجميلة . وكانوا يزينون حيطان منازلهم بالصور ويفرشون أسرتهم بالفرش

الحريرية الفاخرة ؛ كما كانوا يحبون الطبيعة ويقضون معظم أوقاتهم فى الحدائق بين الزهور والورود.



وكان الخزف الصينى أجمل أنواع الخزف فى العالم، وقد شاهد ماركو پولو صناعة الخزف فقال إنهم يصنعونه من طفل يخرجونه من باطن الأرض ثم يضعونه فى أكوام كبيرة ويتركونه فى الهواء الطلق معرضاً للشمس والرياح والأمطار مدة لاتقل عن ثلاثين سنة دون أن يمسه أحد فهم بذلك لايخرجونه من الأرض لمنفعتهم العاجلة ولكن لمنفعة الأجيال التالية . وعندما تنتهى هذه المدة يصبح الطفل صالحاً للاستعمال فيمزج بالماء ثم تصنع منه الأوانى المختلفة الأنواع والأشكال . ثم يقوم الفنانون بعمل النقوش الجميلة عليها ثم توضع فى أفران لمدة طويلة ، فإذا انتهت هذه العملية أصبحت الأوانى الخزفية بذلك معدة للبيع فى الأسواق المحلية قام التجار بنقلها إلى مختلف بقاع الأرض .

وقد مهر الصينيون فى صناعة الورق وزاولوا الطباعة بواسطة الكتل الخشبية سنة ٩٣٢ . وفى سنة ٩٨٠ أمر أحد أباطرة الصين بطبع

كتاب شمل كل ما كان يعرف عن الصين فى ذلك الوقت .

وكان الصينيون يستعملون الأوراق الماليه فى معاملاتهم : لقد دهش ماركو پولو إذ رأى موظفى الخان يصنعون الأوراق المالية من الورق وكان يعتقد أن الخان ساحر يستطيع أن يحول الورق العادى إلى ورق نقدى، يصبح متداولا بين الصينيين والتجار الأجانب على السواء . ويصف ماركو پولو صناعة الورق فيقول :

« إن شجرة التوت التى تستعمل أوراقها فى تغذية دودة القز يستعمل لحاؤها أيضاً فى صناعة نوع خاص من الورق فيأخذون هذا اللحاء ويسحقونه فى دعاء ثقيل ويخلطونه بالماء ثم يعالجونه ببعض المواد الأخرى فيصبح الخليط ورقاً أسود اللون . ثم يقطع إلى قطع مختلفة الأحجام تختلف قيمة كل منها باختلاف حجمها» وقال پولو إنهم يهتمون بهذه الصناعة اهتمامهم بصناعة العملة الذهبية والفضية .

وهناك موظفون يشرفون على دار السك ويوقعون على كل ورقه مالية ثم يختمونها بخاتم الدوله ذى اللون الأحمر .

ولم يكن أحد يجرؤ على تزييف الأوراق المالية إذ كان عقاب ذلك الموت .

وكان جميع رعايا الإمبراطور يستعملون هذه الأوراق دون تردد ، كما كان التجار الأجانب يستعملونها فى شراء الحرير واللآلئ والفلفل والبضائع الصينية الأخرى .

وكان الصينيون يعرفون كيف يصنعون الأدوات المعدنية فيضعون المعدن فى أفران كبيرة حتى ينصهر ثم يصبون المادة المنصهرة فى قوالب فتخرج لهم منها أوان بديعة الشكل ، وقد مهروا كذلك فى صناعة أدوات الزينة من البرونز .

لم يصدق أهل أوربا ماركو پولو عندما قال لهم إنه رأى حجراً أسود يستعمله الصينيون للوقود ولكن من أتى بعده من الرحالة أثبتوا وجود الفحم فى الصين . وقد استخرجه الصينيون واستعملوه قبل أن يستعمله الأوربيون بعدة قرون .

## كيف كان التتار يحكمون الصين

كان الصينيون يفوقون التتار فى تعدادهم وفى ثروتهم ولكن على الرغم من هذا انتصر عليهم التتار دون عناء ، وسبب ذلك هو أن التتار كانوا قبائل مقاتلة تحت قيادة موحدة فى حين كان أهل الصين يميلون إلى السلام ويكرهون الحرب ، وكان الجنود فى نظرهم أحط الناس شأناً فى الوقت الذى كان التتار فيه يكرمون المحاربين العظماء . قاومت مدن الصين الهجوم التتارى ولكنها لم تلبث جميعها أن خضعت لحكم التتار .

ولكن كيف استطاع التتار أن يحكموا هذه الدولة المترامية الأطراف

بعد فتحها ؟ لقد تأكد قبلاخان أنه إذا سمح لجنوده أن يعيشوا فى المدن الصينية فسيفقدون روحهم الحربى وقد تنتهى بذلك إمبراطوريتهم . لم يكن يود أن يترك جنوده ما تعودوه من حياة التقشف والجندية التى جعلت منهم أعظم محاربين فى التاريخ . ولذلك فلم يكن مسموحاً للجنود بسكنى المدن بل كانوا يسكنون فى معسكرات ضخمة خارجها ومعهم قطعانهم من الماشية والأغنام التى يعتمدون عليها فى غذائهم وكسائهم ، وكانوا دائماً على أهبة الاستعداد إذا أتتهم أوامر الإمبراطور بالتحرك للحروب ، وكان من السهل عليهم طى خيامهم وجمع قطعانهم والتحرك فى بضع ساعات .

ولما كان الإمبراطور يعتقد أن الصينيين يكرهون التتار كرهاً شديداً لم يكن يسمح لأى صينى أن تبلغ منصباً كبيراً فى خدمته . فحكام الأقاليم وكبار الموظفين كانوا من التتار أو المسلمين أو المسيحيين ، وقد وثق بهؤلاء لأنهم كانوا غرباء عن الصين .

ولكن مع ذلك حاول الإمبراطور أن يحكم بين الناس بالعدل وأن يزيد من ثروة الشعب ، ولاشك أن الصينيين قد ازدادوا ثروة أثناء حكم التتار واستطاعوا أن يحيوا الحياة الجميلة التى يعشقونها .

رأى ماركو پولو قناة الصين العظيمة التى لا تزال موجودة إلى الآن والتى تعتبر أطول القنوات التى حفرها الإنسان وهى تحمل منتجات

الصين الجنوبية إلى بيكين ، ولم تكن هذه القناة قد تمت عندما وصل آل پولو إلى الصين فأمر قبلاخان بحفر المسافة الباقية منها وقدرها سمائة ميل .

وكان على الصينيين أن يطيعوا قوانين الخان إطاعة تامة وكانت بعض العقوبات قاسية لمن لا يطيعون هذه القوانين ، وقد قلت بل اندثرت معظم الجرائم لأن الإعدام كان عقوبة الكثير منها .

وكان حكم الإمبراطورية الواسعة يقتضى أموالا طائلة فكانت الضرائب تفرض على البضائع التى تصل إلى الصين والتى تخرج منها ، وكذلك على البضائع التى تباع فى الأسواق فى مختلف المدن والقرى وكذلك كانت تفرض على الملح وكانت التجارة رائجة بين الصين وغيرها من الدول وكان أهم ما يتجرون فيه الحرير والمجوهرات وأنواع البهار .

## إخفاق قبلاخان فى فتح اليابان

علم آل پولو أثناء وجودهم فى بلاط قبلاخان أن هناك محاولة من الإمبراطور لفتح اليابان ، فقد بلغه الكثير عن ثروة اليابان وخيراتها . لقد فتح قبلا خان كل البلاد المحيطة به ، ولذلك فقد صمم على فتح بلاد

اليابان وخاصة أنها لم تكن بعيدة عن الصين .

فني سنة ١٢٧٩ جهز الإمبراطور أسطولا ضخماً أبحر من ميناء « زى تون » بالقرب من هانج تشاو بقيادة اثنين من قواده فعبر البحر ثم رسا في أحدى الجزر اليابانية ليتخذ منها قاعدة للهجوم على بقية هذه الجزر .

ولكن لم يلبث الشقاق أن قام بين القائدين فضعفت قوة التتار ولم يستطيعوا احتلال سوى مدينة ساحلية صغيرة . ثم قامت ريح شمالية شتتت شمل السفن التتارية ودمرت منها عدداً كبيراً فعقد ضباط الأسطول مجلساً ليناقشوا الموقف من جميع نواحيه وقرروا ضرورة الانسحاب من أرض اليابان مباشرة حتى لا تتحطم كل قطع الأسطول . وانسحب الجنود طبقاً لهذه الأوامر من الأماكن التي احتلوها وقفلوا راجعين إلى بلادهم .

ولم يكد الأسطول يبتعد عن سواحل اليابان حتى ازدادت شدة العاصفة فتحطم عدد كبير من سفن التتار واستطاع جماعة من الجند التتارى الذين غرقت سفنهم من الوصول إلى جزيرة قاحلة على بعد أربعة أميال من ساحل اليابان .

أما بقية السفن وعلى رأسها القائدان التتاريان فقد وصلت بعد صراع عنيف إلى ساحل الصين .

وأما أولئك الجند الذين وصلوا إلى الجزيرة اليابانية الصغيرة وكانوا عدة آلاف فلم يكن معهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم ، كما لم يكن معهم طعام كاف يسد رمقهم ولم يكن أمامهم إلا أن يسلموا أنفسهم أسرى إلى اليابانيين أو يموتوا جوعاً فى هذه الجزيرة القاحلة .

وعندما هدأت العاصفة اكتشف سكان إحدى المدن اليابانية القريبة أمر هؤلاء الجنود التتاريين فقاموا فى عدة سفن إلى هذه الجزيرة للبحث عنهم والقبض عليهم . ولكن المناطق المرتفعة فى وسط الجزيرة ساعدت جنود التتار على الاختفاء عن أعين اليابانيين ، وكان اليابانيون كلما تقدموا تراجع التتار وراء الأماكن المرتفعة فلم يتمكن اليابانيون من رؤيتهم ولم يلبث أن وجد التتار أنفسهم أمام خليج هادئ ترسو فيه السفن اليابانية التى لم يكن بها بحار واحد فى حين كانت الأعلام اليابانية ترفرف عليها .

أخذ التتار السفن واتجهوا نحو الساحل اليابانى حتى وصلوا إلى تلك المدينة التى قام سكانها للبحث عنهم ثم نزلوا إلى الساحل فلم يجدوا فى المدينة سوى قلة من الرجال طردهم جنود التتار واستولوا على المدينة .

ولما وصلت هذه الأخبار إلى ملك اليابان غضب غضباً شديداً وأمر بعدم إرسال الأطعمة إلى تلك المدينة ثم حاصرها براً وبحراً حتى لا يفلت من الأسر أى تتارى ، واستمر هذا الحصار ستة أشهر استسلم التتار بعدها

على شرط أن يبقى اليابانيون على حياتهم .

علم قبلاخان أن سر إخفاق هذه الحملة يقع على كاهل القائدين التتاريين اللذين تنازعا على القيادة ، فأمر بإعدامهما ليكونا عبرة لغيرهما من القواد .

## ماركو پولو يبحر إلى الجنوب

يصف لنا ماركو پولو فى كتابه « رحلات ماركو پولو » الكثير عن التتار وعن قبلاخان وعن الدول التى فتحها وحكمها هذا الإمبراطور العظيم .

ويصف لنا ماركو پولو مملكة « زيامبا » ( الهند الصينية ) .

فيقول إنها مملكة متسعة الأرجاء كثيرة الخيرات يعترف ملوكها بسلطان الخان العظيم فيرسلون إليه عدداً من الفيلة العظيمة الضخمة كجزية سنوية .

ويصف لنا ماركو پولو قصة هذه الجزية فيقول إن قبلاخان صمم يوماً على احتلال « زيامبا » لكثرة خيراتها وجهز حملة عسكرية بحرية لهذا الغرض تحت قيادة « سوجاتو » وصلت إلى سواحل مملكة زيامبا استعداداً لفتحها .

وكان ملك زيامبا رجلا مسناً ولم يكن فى استطاعته مقاومة جيوش التتار، والمذلك تراجع إلى قلعة له وسط الجبال حيث دافع عن نفسه دفاعاً مجيداً . أما القرى والمدن الموجودة فى السهول فقد هوجمت ودمرت . وعندما رأى الملك أن دولته كلها أصبحت معرضة للدمار أرسل الرسل إلى قبلاخان ملتمساً إيقاف الحرب ومظهراً استعداده لدفع جزية سنوية هى عبارة عن مجموعة من الفيلة والأخشاب ذات الرائحة الزكية .

استمع الإمبراطور إلى طلب السفراء فى عطف وأمر « سوجاتو » بوقف الحرب والتراجع . ومن هذا الوقت استمر الملك فى إرسال هذه الجزية السنوية إلى الخان العظيم وهى تشمل عشرين فيلا من أضخم وأحسن فيلة المملكة كما أصبح تابعاً من أتباع الإمبراطور قبلاخان .

وتشتهر هذه المملكة بأفيالها وأخشابها التى أهمها الأبنوس وهو خشب أسود اللون يستعمل فى صناعة الأثاث الفاخر .

وزار ماركو پولو جزيرة سومطرة، ويقول إن لهذه الجزيرة ساحلا يبلغ طوله ألفين من الأميال . وهى مقسمة إلى عدة ممالك زار ماركو معظمها وهى تنتج جميع أنواع البهار والمواد الطبية كما تنتج نوعاً خاصاً من النباتات يستعمل فى الصباغة . إنها تقع بعيداً إلى الجنوب بحيث لا يرى سكانها النجم القطبى وبها أقلية إسلامية تعمل فى التجارة .

وتستورد الهند من سومطرة القردة المحنطة ثم يبيعونها للتجار على أنها أجسام لآدميين صغار الحجم ، إذ يوجد فى سومطرة نوع من القرود تشبه

وجوهها وجوه الآدميين تماماً يصيدونها ثم يقتلونها ويحلقون شعورها تاركين بعض الشعر فى مكان الذقن بحيث تظهر وجوهها كوجوه الآدميين تماماً ثم يجففون أجسامها ويحفظونها فى مادة الكافور ثم توضع فى صناديق وتباع للتجار الذين ينقلونها إلى مختلف بقاع الأرض .

وكان ماركو پولو فى هذه الرحلة على رأس أسطول ضخم، إذ كان الخان يثق به ثقة كبيرة ويرسله فى مهام رسمية إلى مختلف الجهات . وقد حالت العواصف دون إبحار الأسطول من سومطرة فاضطر إلى إنزال رجاله إلى البر وكانوا حوالى ألفين من الجنود .

ويقول ماركو پولو إن سكان هذه المنطقة من الجزيرة متوحشون يميلون إلى اقتناص الغرباء وأكلهم .

ولحماية رجاله أمر ماركوپولو بحفر خندق عميق بحيث تكون نهايتا الخندق متصلتين بالبحر، كما أمر ببناء بعض القلاع حتى يدافعوا عن أنفسهم إذا ما هاجمهم المتوحشون . وبقى جنود ماركو پولو فى هذا المكان ما يقرب من خمسة أشهر .

والناس فى هذا الإقليم لا يزرعون الغلال بل يعيشون على الأرز كما أنهم لا يعرفون النبيذ ولكنهم يشربون سائلا يشبه النبيذ يحصلون عليه من أشجار كالنخيل .فإذا قطع المرء غصناً من شجرة من هذه الأشجار نزلت منه مادة صفراء اللون يجمعونها فى آنية ويقولون إن هذا السائل نافع فى شفاء الأمراض ، كما ينبت فى هذه المناطق جوز الهند وهو فى

حجمه كحجم رأس الإنسان ويحتوى على مادة حلوة المذاق لذيذة الطعم تشبه اللبن فى بياضها .

وإذا مرض إنسان عند هؤلاء القوم أرسل أهله فى طلب ساحر ليعرفوا منه هل يشفى المريض أم لا . وهنا يدعى الساحر أنه يتكلم مع الأرواح الشريرة التى تخبره بكل شيء فإذا قال الساحر إن المريض لن يشفى استدعى أهله جماعة من الناس وظيفتهم إغلاق فم المريض وأنفه بحيث لا يستطيع التنفس وبذلك لا يلبث أن يموت . ويقطعون جسمه إلى قطع صغيرة ثم يطهونها ويدعون جميع أقاربه إلى وليمة يلتهمون فيها لحم الميت ، أما عظامه فتجمع فى صندوق صغير يدفن فى أحد الكهوف .



# ماركو پولو يزور جزيرة سيلان ويصفها

كما زار ماركو پولو جزيرة سيلان وهى تقع إلى الجنوب من الهند ، وكان يحكم هذه الجزيرة ملك لا يخضع لسيطرة قبلاخان . ويسير الرجال والنساء عراة الأجسام لشدة الحر وغذاؤهم اللبن والأرز واللحوم .

وكان لدى ملك الجزيرة جوهرة حمراء اللون عظيمة القدر سمع بها الإمبراطور قبلاخان فأرسل الرسل إليه طالباً منه هذه الجوهرة ومظهراً استعداده لدفع ما يشاء ثمناً لها ، ولكن الملك اعتذر قائلا إنه لا يستطيع بيعها لأنه ورثها عن أجداده .

وفى هذه الجزيرة جبل مرتفع جدًّا لا يمكن الصعود إليه إلا بواسطة السلاسل المثبتة بالصخر ، ويقولون إن هناك فوق قمة هذا الجبل مقبرة يقول المسلمون إنها لآدم كما يعتقد البوذيون أنها لبوذا .

ويقول ماركو پولو عن بوذا إنه ابن لأحد ملوك هذه الجزيرة هجر مملكته وزوجته وابنه وانطلق إلى الدنيا الواسعة هائماً على وجهه يبحث عن الحقيقة ولبس لباس المتسولين وأخذ يلتمس الصدقة من الرائحين والغادين فى وعاء صدقته .

انطلق بوذا فى الآفاق ينشر دعوته التى لخصها فى هدف واحد هو الحصول على السعادة عن طريق السلام . لقد عاش بوذا أميناً بسيطاً لا يجلب الأذى لأحد . كان كالنحلة تقف على الزهرة فلا تؤذى لونها أو رائحتها .

عاش بوذا يضرب فى بيداء الأرض يغمر الناس بحبه ويعلمهم الحكمة ويبهرهم بزهده وتجرده .

لقد دخل مدينة أبيه يوماً ملتمساً الصدقة من الناس فى وعاء الصدقة ووصل الخبر إلى أبيه فذهب إليه وحاول أن يثنيه عن هذا الطريق فهرب الابن سرًّا إلى هذا الجبل حيث مات ودفن فى هذا القبر .

حزن عليه أبوه حزناً شديداً وأمر بصنع تمثال له من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة كما أمر أهل الجزيرة بعبادته . ويحج إلى قبره فى أعلى الجبل سنويًّا آلاف من الحجاج ، ولا تزال بعض شعرات من رأسه وأسنانه ووعاء صدقته محفوظة إلى الآن فى قبره ، ويقول المسلمون إن هذه الأشياء تخص آدم عليه السلام ، ولذلك فهم يحجون أيضاً إلى هذا الجبل كل عام.

لقد حاول قبلاخان الحصول على هذه الأشياء المقدسة وبعث ببعض سفرائه إلى ملك الجزيرة يطلبونها منه فأرسل له الملك سنّين وبعض شعرات وضعها الإمبراطور فى وعاء فاخر كان يحتفظ به فى غرفته الخاصة .

# أرض مابار

ترك ماركو پولو سيلان وأبحر نحو الغرب حتى وصل إلى إقليم « مابار » أحد أقاليم دولة الهند .

ويعمل سكان هذا الإقليم فى صيد اللآلئ من خليج قليل الغور يقابل جزيرة سيلان، ويصف ماركو پولو طريقة صيد اللؤلؤ فيقول :

هناك شركة من التجار تملك عدداً ضخماً من السفن والقوارب المختلفة الأحجام . يبحر هؤلاء التجار بسفنهم إلى مناطق صيد اللؤلؤ فى بدء موسمه ومعهم الغطاسون الذين ينزلون إلى قعر الخليج فيجمعون منه نوعاً خاصاً من الأصداف يضعونها فى شباك فإذا أنهكهم التعب خرجوا إلى سطح الماء ووضعوا الأصداف فى القوارب واستراحوا قليلا ثم عادوا إلى الغطس .

وتؤخذ الأصداف إلى الشاطئ وتنثر على الرمال حيث تموت وتتآكل أجسامها وبذلك يمكن فتحها بسهولة . وقد تفتح مئات الأصداف دون أن يوجد بها أية لؤلؤة .

وفى بحار الهند يهاجم الغطاسين نوع من الأسماك الضخمة المتوحشة ولذلك يأخذون معهم عند خروجهم للصيد جماعة من السحرة الذين يستطيعون بواسطة السحر إبعاد هذه الأسماك المتوحشة .

ولا يستطيع أنسان أن يزاول هذا العمل وهو صيد اللؤلؤ دون تصريح من الملك الذى يفرض على الصيادين ضريبة هى عشر ما يستخرج من اللؤلؤ .

ويغسل الرجال والنساء أجسامهم مرتين فى اليوم فى الصباح والمساء . وعندما يأكل المابارى لا يستعمل سوى يده اليمنى فلا تلمس يده اليسرى أى شىء من الطعام ، ولكل شخص إناؤه الخاص للشرب فلا يستعمل أحد إناء غيره . وإذا شربوا لا يلمس الإناء أفواهم وإذا كان عندهم ضيف لا يملك إناء صبوا له الماء أو الخمر فى يده فيستعملها بدل الإناء .

ويعتقد هؤلاء الناس أنهم يستطيعون معرفة المستقبل بملاحظة اتجاه الطيور فى طيرانها فإذا اتجه الطير فى طيرانه إلى الشمال مثلا كان هذا فألا حسناً وإذا طار عكس هذه الاتجاه كان فألا سيئاً وهكذا .

وإذا بلغ الابن الثالثة عشرة لم يعد أبوه مكلفاً بإطعامه فيعطيه مبلغاً من المال لاستغلاله فى كسب قوته .

وينتشر هؤلاء الأولاد فى كل مكان يبيعون ويشترون ويربحون ، فإذا أتى موسم صيد اللؤلؤ ذهبوا إلى الشاطئ يشترون اللآلئ الصغيرة

كل بحسب ما لديه من مال ثم يبيعونها إلى التجار بأرباح بسيطة ثم يشترون طعامهم ويذهبون به إلى أمهاتهم .

وفى هذه المملكة ، وبالقرب من مدينة « مدراس » قبر أحد القديسين المسيحيين يدعى القديس توماس . وهناك قصة عن هذا القديس وعن الكنيسة المقامة قرب قبره ، فيحكى أن أحد النبلاء جمع محصولا كبيراً من الأرز لم تستطع مخازنه استيعابه كله فاغتصب هذا النبيل غرفة تمتلكها الكنيسة ليحتفظ فيها ببقية محصوله وكانت هذه الغرفة ملحقة بقبر القديس يستريح فيها الزوار إذا ما حضروا لزيارة قبره .

وفى نفس الليلة التى اغتصب فيها الرجل هذه الغرفة ظهر القديس له فى حلم وقد أمسك بسكين وصوبها نحو رقبته وأمره أن يترك الغرفة وإلا قتله أبشع قتلة فاستيقظ الرجل مذعوراً وأعاد الغرفة إلى أصحابها .

أما القديس توماس فيقولون إنه مات فى أثناء تأدية الصلاة وكانت الطيور تحيط به لتؤنسه فى وحشته ، فمر صياد بهذا الطريق ورأى الطيور فصوب سهمه إلى أحدها دون أن يرى القديس فأصاب السهم القديس وقتله .

وسكان هذا الإقليم ذوو بشرة سوداء على الرغم من أنهم لا يولدون بهذا اللون الأسود الذى يعتبرونه رمزاً للجمال ، ولكى يحصلوا على هذا اللون

يدهن الأمهات أطفالهن ثلاث مرات فى اليوم بزيت خاص يصبغ لون الوجه كما يدهنون تماثيل آلهتهم بهذا اللون أما تماثيل الشياطين فيدهنونها باللون الأبيض .

وكثير من سكان مابار يعبدون الثور فإذا ذهبوا إلى الحرب أخذوا معهم شعر ثور برى يربطونه بخيولهم ويعتقدون أن هذا الشعر سيبعد عنهم الأخطار ، ولذلك نرى أن شعر الثور البرى كان يباع بأسعار كبيرة فى هذه الدولة .

## ماركو پولو يزور أقصى الشمال

وصف ماركو پولو فى كتابه المناطق الجنوبية الحارة من إمبراطورية قبلاخان والتى يسير فيها الناس عراة الأجسام تقريباً لشدة الحرارة ، والآن يقص علينا ماركو ما رآه فى رحلته إلى أقصى الشمال حيث لا تظهر الشمس فى الشتاء وحيث الأرض ناصعة البياض لأنها مغطاة بالجليد .

وفى هذه الأقاليم الشمالية القاحلة المغطاة بطبقات سميكة من الجليد وحيث يعيش أقوام رحّل من التتار لا يستقرون فى مكان تكثر الدببة ذات الحجم الكبير والثعالب ذات الفراء الأسود والحمُر الوحشية وغيرها من الحيوانات الصغيرة الحجم الفاخرة الفراء . ويقوم التتار من سكان

هذا الإقليم بصيد هذه الحيوانات لفرائها ثم يبيعونها إلى التجار بأسعار كبيرة .

والرحلة إلى هذه المناطق شاقة فى الصيف إذ تكون الأرض مغطاة بالمستنقعات الناتجة عن ذوبان الجليد ولكنها سهلة فى الشتاء بسبب طبقات الجليد الصلبة التى تغطى سطح الأرض .

وقد بنى التتار محطات على طول الطريق من الجنوب إلى الشمال ينزل فيها التجار الذين يسافرون إلى تلك المناطق فيجدون فيها معظم وسائل الراحة ويقابلون فيها صيادى الفراء . ويتم السفر إلى الشمال بواسطة الزحافات وهى عربات خفيفة لا عجل لها تجرها الكلاب وتنزلق بسرعة على الجليد .

ويوجد إلى الشمال من تلك المناطق إقليم آخر يسمى بإقليم الظلام لا تظهر فيه الشمس طول الشتاء وتسكنه قبائل غير تتارية وكثيراً ما يهاجم التتار سكان تلك المناطق لسرقة ما لديهم من فراء منتهزين فرصة تلك الشهور المظلمة .

ولكى يستطيعوا العودة فى الظلام ولا يضلوا طريقهم كانوا يركبون خيولا لها صغار فإذا ساروا تبعت هذه الصغار أمهاتها وعندما يصلون إلى حدود هذا الإقليم المظلم يتركون صغار الخيل فى حراسة بعض منهم حتى إذا انتهوا من عملهم فى هذا الإقليم وأرادوا العودة تركوا خيولهم تسير كيف تشاء فتتجه بغريزتها إلى حيث تركت صغارها .

أما سكان هذه المناطق المظلمة فينتهزون فرصة فصل الصيف الذى لا تغرب فيه الشمس نصف العام ويقومون بصيد الحيوانات ذات الفراء . وفروها من نوع أجود مما يصيده التتار إلى الجنوب منهم ، ثم يحملون فراءهم إلى الدول المجاورة حيث يبيعونها بأثمان عالية .

## آل پولو يعودون إلى الوطن

خدم آل پولو الإمبراطور قبلاخان مدة سبع عشرة سنة عاودهم بعدها الحنين إلى وطنهم ليقضوا فيه البقية الباقية من حياتهم .

لقد أصبح الخان مسناً فخشى آل پولو أنه — لو مات — فقد لا يعاملهم الإمبراطور الجديد نفس تلك المعاملة الكريمة التى كان يعاملهم بها قبلاخان .

وفى ذات يوم وكان الخان فى حالة نفسية مرضية طلب منه ماركو پولو أن يسمح له ولأبيه ولعمه بالسفر إلى أوربا إذ لم يصلهم طول هذه المدة التى قضوها فى الصين أية مكاتبات من ذويهم فى البندقية .

لقد كان هذا الطلب من ماركو پولو للخان مفاجأة لم يكن مستعداً لها فامتقع وجهه وفارقته ابتسامته وجلس صامتاً مدة طويلة . لم يكن

يعتقد الخان أن ماركو پولو الذى أحبه كأحد أبنائه والذى وثق فيه ثقة تامة فأرسله إلى مختلف الممالك كسفير له سيتركه وقد أصبح مسناً .

وأوضح الإمبراطور لماركو پولو أن رحلة العودة قد تكون خطرة وأنه قد يمر بدول لن يكون فى إمكانه حمايته فيها بسبب نشوب الحرب بين القبائل التتارية إلى الغرب من الصين ، ثم قال إنه إذا أراد الثروة فسيقدمها له وإذا أراد الجاه فسيعطيه إياه ، ثم ختم حديثه بأن طلب من ماركو أن يؤجل الحديث فى هذا الموضوع إلى فرصة أكثر مناسبة .

ولكن حدثت بعض حوادث فى دولة بعيدة عن الصين كانت سبباً فى سماح الخان لهم بالسفر ، فقد كان فى الهند إقليم يحكمه أحد ملوك التتار وكان يمت بصلة القرابة إلى قبلاخان وهو الملك « أرجون » .

حدث أن مرضت زوجة هذا الملك مرضاً شديداً وأشرفت على الهلاك فخشيت أن يتزوج الملك بعد موتها امرأة من عامة الشعب فطلبت إليه أن يعدها بأن يتزوج فى حالة وفاتها إحدى أميرات التتار وأن يرسل سفراءه إلى الإمبراطور قبلاخان فى الصين ليجد له زوجة مناسبة من العائلة المالكة .

ثم لم تلبث الزوجة أن ماتت فأرسل الملك ثلاثة من سفرائه إلى بلاط قبلاخان فى رحلة شاقة استغرقت عدة شهور ليجدوا له أميرة تعتلى عرش بلاده .

وبعد بحث شاق طويل قام به موظفو الخان وجدوا زوجة مناسبة وافق عليها السفراء الثلاثة وكانت فى السابعة عشرة من عمرها واسمها الأميرة « كوجاتين » .

ثم بدأ السفراء يعدون أنفسهم للرحيل بعد غياب ثلاث سنوات عن بلادهم .

وفى ذلك الوقت كان ماركو پولو قد رجع من رحلة إلى بعض جزائر المحيط الهندى وعلم السفراء بهذا فذهبوا إلى منزل آل پولو واتصلوا بماركو طالبين إليه أن يصحبهم فى رحلتهم إلى الهند لأنه على علم تام بهذه البحار الجنوبية ، واتفقوا جميعاً على أن يذهب ماركو پولو مع السفراء الثلاثة إلى الإمبراطور ثم يطلب إليه السفراء السماح لهم بالسفر بطريق البحر إلى الهند على أن يأخذوا معهم ماركو پولو كقائد لسفنهم ثم يخبروه أن هذه الرحلة البحرية ستكون أقل تكاليف من الرحلة البرية . فإذا وافق الإمبراطور رجوه أن يصحبهم نيقولا وماڤيو پولو .

قابلهم الإمبراطور فى قصره وأوضح له السفراء رغباتهم وكان يظهر على وجه الإمبراطور عدم ميله إلى التصريح لماركو بقيادة السفن ولا لأبيه وعمه بالسفر معهم لأنه كان يحس بأنهم سيستمرون فى رحلتهم إلى البندقية . ولكنه اضطر أخيراً إلى الموافقة لأنه وجد أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها الأميرة والسفراء الرجوع إلى الهند .

وقبيل الرحيل توجه آل پولو لزيارة الإمبراطور خوفاً من أن يكون

قد غير رأيه فخاطبهم بكل مظاهر العطف والود وأبدى أسفه الشديد على فراقهم وطلب منهم أن يعدوه بالرجوع بعد زيارتهم البندقية واطمئنانهم على ذويهم ، ولم يكن أمامهم إلا أن يعدوه بذلك . ثم أمدهم الإمبراطور بجواز ذهبي يسهل لهم الطريق عبر دول التتار ، كما أمدهم بالمال الوفير والهدايا الثمينة والزاد ، كما أعطاهم خطابات ليكونوا سفراء له لدى البابا ولدى ملوك فرنسا وأسبانيا وإنجلترا .

أمر قبلا خان بتجهيز عدد من السفن الكبيرة يربو على خمس عشرة سفينة لنقل العروس والسفراء الثلاثة وآل پولو إلى الهند ويصف لنا ماركو پولو السفينة الخاصة بالعروس والسفراء فيقول إنها تشبه المدينة الصغيرة بها عدد كبير من القمرات المجهزة بالأسرّة المريحة كما أن بها حظائر خاصة للحيوانات وأقفاصًا خاصة بالطيور التي تمد الركاب باللحوم الطازجة كما أن بها أحواضاً خاصة بزراعة أنواع الخضر .

وقد خصصت خمس من هذه السفن لنقل الجنود وكان بكل سفينة ثلثمائة جندى وبحار وكان بها من الطعام ما يكفيها سنتين .

لم يستطع آل پولو أخذ كل ثرواتهم معهم فباعوا معظمها واشتروا كميات من الأحجار الكريمة والجوهرات وضعوها فى أمكنة سرية فى ملابسهم وخاطوا عليها .

وقبل أن تقلع السفن توجه آل پولو للمرة الأخيرة لرؤية قبلا خان ووداعه فقدم لهم بعض الهدايا من الجواهر الثمينة وقال إنه كبير الأمل

فى عودتهم إلى الصين بعد زيارتهم للبندقية . ثم أقلعت السفن فى طريقها إلى الهند .

لقد أمضى ماركو پولو نصف عمره فى الصين وعند رجوعه إلى البندقية كان لا يزال شاباً فى الخامسة والثلاثين تقريباً، أما أبوه وعمه فكانا فوق الخمسين بقليل . وكان لا يزال أمامهم متسع من الوقت يتمتعون فيه بثرواتهم الضخمة ولكن كان أكثر ما يخشاه آل پولو أن يجدوا أن معظم أقاربهم وأصدقائهم قد ماتوا .

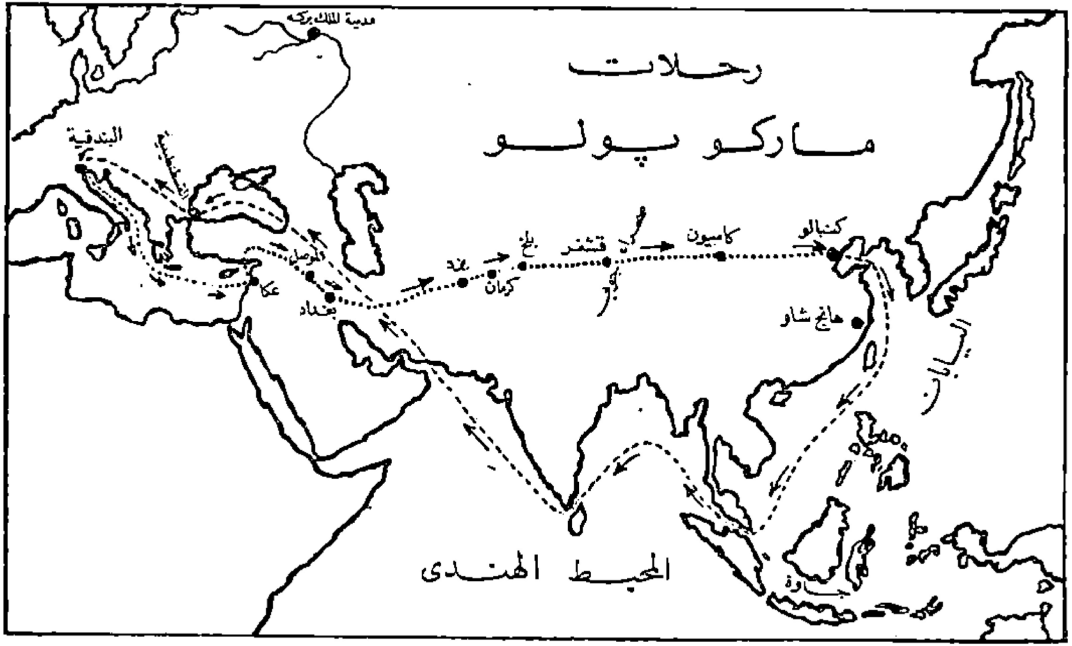
وبعد ثلاثة أشهر وصلت السفن إلى جزيرة جاوة وهى إحدى الجزر الكبيرة فى جنوب شرق آسيا . ويصفها ماركو پولو فيقول إنها تشتهر بمناجم الذهب وبزراعة الفلفل والبهار، ولم تكن هذه الجزيرة ضمن ممتلكات قبلاخان ولكن على الرغم من هذا كان يأتيها تجار من الصين لتبادل التجارة مع أهلها . ويقول ماركو إنهم نزلوا إلى هذه الجزيرة لأنهم كانوا فى حاجة إلى الراحة بعد رحلة ثلاثة أشهر مستمرة فى البحر، ثم أبحرت السفن من جاوة متجهة نحو الغرب فمرت بعدة جزر وموانئ حتى وصلت أخيراً وبعد ثمانية عشر شهراً إلى إحدى الموانئ التابعة للملك « أرجون » .

لقد مات أثناء الرحلة ما يقرب من الخمسمائة شخص بينهم أحد السفراء كما ماتت إحدى وصيفات الأميرة .

وعند وصولهم إلى هذا الثغر فوجئوا بخبر موت الملك أرجون وتولى ابنه « كاسان » الملك ولم يكن كاسان فى عاصمة ملكه فى ذلك الوقت بل

كان قد قام على رأس جيش قوامه ستمائة ألف إلى حدود فارس للقضاء على ثورة هناك ، فاضطر الركب إلى القيام برحلة إلى حدود فارس حيث سلموا الأميرة إلى الملك كاسان وبعد ذلك ودعوا السفيرين ثم استمروا فى رحلتهم تحت حراسة مائتين من جنود التتار حتى وصلوا إلى ميناء « ترابيزون » فى أرمينيا ومن هناك أبحروا إلى القسطنطينية .

وأخيراً وفى مستهل عام ١٢٩٥ وبعد غياب عشرين سنة أشرف آل پولو على البندقية بكنائسها وقصورها وأبراجها وقبابها فاغرورقت عيونهم بالدموع وركعوا ليقدموا فروض الشكر لله عز وجل على رعايته لهم فى رحلتهم الشاقة الطويلة من الشرق البعيد .



رحلات
ماركو پولو
مدينة الملك بركه
البندقية
الموصل
عكا
بغداد
يزد
كرمان
بلخ
قشغر
كاميون
كنبالو
هانج شاو
اليابان
جاوة
المحيط الهندى

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٦٣٨ /١٩٧٤

مطابع دار المعارف بمصر
١٩٧٤

# مجموعة قصص الرحالة والمكتشفين

هذه المجموعة كانت تنتظرها المكتبة العربية من زمن بعيد . . . إنها تصور لنا رجالا من جميع العصور ومن الشرق والغرب ، خاضوا غمرات البحار ، وضربوا فى مجاهل الأرض ، لا يقف فى سبيلهم محيطات متلاطمة الموج ، ولا صحارى قاحلة ، ولا جبال شاهقة ، ولا مساحات الجليد المنبسطة فوق المناطق القطبية المتجمدة . . . ليكشفوا للعالم عوالم جديدة وأرضاً جديدة وشعوباً جديدة بعاداتها وتقاليدها وغرائبها .

إن هذه المجموعة الطريفة الشائقة المحلاة بالرسوم والمزودة بالخرائط ، والمكتوبة بأسلوب قصصى جذاب ، تحكى لنا قصص هؤلاء الرحالين والمكتشفين ، فيستمتع بها الناشئة والكبار على السواء .

● ظهر منها

| | |
|---|---|
| ١ – خوف حر | للدكتور عبد العزيز عبد المجيد |
| ٢ – فاسكو دى جاما | للأستاذ محمد عبد الغنى حسن |
| ٣ – عبد اللطيف البغدادى | للأستاذ عبد السلام العشرى |
| ٤ – ولتر رالى | للأستاذ محمد عبد الغنى حسن |
| ٥ – عمر التونسى | للدكتور عبد العزيز عبد المجيد |
| ٦ – الكابتن كوك | للأستاذ محمد عبد الغنى حسن |
| ٧ – المسعودى | للأستاذ عبد السلام العشرى |
| ٨ – الكابتن سكوت | للأستاذ محمد عبد الغنى حسن |
| ٩ – ماركو پولو | للأستاذ إبراهيم أسعد |
| ١٠ – بيرى | للأستاذ محمد عبد الغنى حسن |
| ١١ – منجوبارك | للأستاذ محمد عبد الغنى حسن |
| ١٢ – المقدسى البشارى | للدكتور عبد الفتاح شلبى |
| ١٣ – ماجلان | للأستاذ مترى أمين |

| | | |
|---|---|---|
| ١٣ قرشاً ج . ع . م . | ١٣٠ فلساً فى العراق والأردن | ١٨٢ فرنكاً فى المغرب |
| ١٠٤ ق . ل | ١٣٠ فلساً فى الكويت | ١,١٣ ريالا سعودياً |
| ١٣٠ ق . س | ١٥٦ مليماً فى تونس | ٢,٧ شلناً } فى البلاد |
| ١٣٠ مليماً فى ليبيا والسودان | ١٨٢ فرنكاً فى الجزائر | ٠,٣٧ دولاراً } الأخرى |